قطرات
من فيض الرسول

الدكتورة /مرفت محرم

قطرات من فيض الرسول

الدكتورة مرفت محرم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾
الأحزاب

الإهداء

إلى روح المستشار محمد حمزة

زوجي الغالي

إلى الزهراوين ساكني الجنان، قرَّة عيني:

حامد و محمد

أهدي إليهم:

قطرات من فيض الرسول..

التقديم

للدكتور/ نصر فريد واصل

مفتي جمهورية مصر العربية الأسبق

بسم الله الرحمن الرحيم

قرأتُ هذا الكتاب: قطرات من فيض الرسول، الذي تفضلت مشكورة الدكتورة: مرفت محرم – مؤلفته – بإرساله إلينا للتقديم له بعد الاطلاع عليه، والانتهاء من قراءته. وإذا كان الفضل دائمًا ينسب لأصحابه، فإنني أشكر مؤلفة هذا الكتاب، وأدين لها بهذا الفضل الذي أهدته إلينا، وهو التقديم لكتابها في صفات وشمائل خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعض الصحابة الكرام، تحت عنوان: "قطرات من فيض الرسول".

وهذا الكتاب من الناحية العلمية، يتكون من ثلاثة أبواب وخاتمة:

الباب الأول: الشخصية المحمدية.

والباب الثاني: في الشمائل المحمدية.

والباب الثالث: في بطولات له ولأصحابه شهدتها غزواته في سبيل نشر دعوة الإسلام، والدفاع عنها.

والباب الأول: الشخصية المحمدية، هو من الناحية العلمية رسالة إلى الحبيب، شملت السيرة العطرة لشخصيته ومنهج الدعوة الإسلامية التي حمل عبء رسالتها، والقيام بها لإصلاح البشرية والإنسانية من الجهالة العمياء، والظلم والفساد العقائدي والمادي الذي عمَّ البشرية والعباد والبلاد في كلِّ مكان من العالم.

كما شمل هذا الباب صفات العالم قبل البعثة النبوية الشريفة لرسول الإسلام والسلام محمد بن عبد الله، وصفات جزيرة العرب العظيمة ومكانتها بالنسبة للعالم، والتي شرفت بانتساب النبي وأصوله الطاهرة إليها، ومولده ونشأته بقبيلته وبيت النبوة فيها.

كما شمل هذا الباب بشائر الرسالة والرسول للبشرية والإنسانية، والتوازن النفسي والسلوكي والأخلاقي في شخصيته، وأثر ذلك في جذب أعداء الإسلام إليه، والدخول في دين الإسلام، والإيمان بدعوته، مع بيان إنسانية الرسول مع الأغنياء والفقراء على حد

سواء، والأمثلة العملية الكثيرة من ذلك في قصص كثير من الرجال والنساء، مما هو مذكور في الكتاب.

وفي هذا الباب أيضًا بيان إنسانية الرسول مع تعامله مع النساء: الأم والزوجة والابنة والأخت، وتكريمه لجميع النساء، وبيان أن جميعهن شقائق الرجال في جميع الحقوق والواجبات الإنسانية والتكاليف الشرعية التي جاء بها في شريعته الإسلامية، مع بيان صفات الرسول – صلى الله عليه وسلم – وإنسانياته في التعامل مع أعدائه، والمخالفين له في دين الإسلام، وعفوه عن كثير منهم كمشركي مكة عام الفتح، وهم الذين أخرجوه منها مع مَنْ آمن مِن المسلمين، وأجبروهم على الخروج منها، والهجرة إلى المدينة، وقال لهم بعد الفتح: اذهبوا فأنتم الطلقاء!

أما الباب الثاني من هذا الكتاب، فهو يتناول الشمائل المحمدية له، والتي شملت وصف الحبيب النبي الجميل، خَلقًا وخُلقًا - صلى الله عليه وسلم – مع بيان منزلته ومكانته وحقه علينا، مع وصف زيارة لبيت النبوة بالمدينة المنورة، وصفة نومه، ودعائه قبل النوم، والأغذية التي كان يتناولها الرسول – صلى الله عليه وسلم – والبرنامج السليم من الشمائل المحمدية الذي يعد من الهدي النبوي للإنسانية والبشرية؛ لأنه جاء نذيرًا وبشيرًا ورحمة للعالمين، وفي هذا الباب ورد بيان تفصيل لهذا البرنامج الغذائي السليم.

كما شمل هذا الباب شمائله في زينته وثيابه وكلامه، وخطاه ومشيه، وتريضه البدني والروحي والنفسي في الصلاة وغيرها من العبادات كالصيام.

وأما الباب الثالث، فهو حول البطولات للرسول وصحابته التي شهدتها الغزوات الجهادية في سبيل نشر الإسلام والدفاع عنه وعن المسلمين، والتي شملت بطولات الرجال والنساء على حد سواء، ومن هؤلاء مصعب بن عمير، وحبيب بن زيد، وبلال بن رباح مؤذن الرسول، وسلمان الفارسي، ومعاذ بن جبل أعلم الأمة بالحلال والحرام، وحمزة بن عبد المطلب (أسد رسول الله)، وسمية بنت خياط (أم عمار)، والخنساء بنت عمرو (شاعرة الإسلام وأم الشهداء)، ونسيبة بنت كعب الأنصارية (أم عمارة)، وأم كلثوم بنت عُقبة.

وجميع هؤلاء بطولاتهم وسام شرف خالد لهم وللإسلام وللمسلمين إلى يوم الدين، رضي الله عنهم أجمعين.

وأما الخاتمة: فهي تلخيص موجز وصورة واضحة للنبي وشمائله وأخلاقه ورسالته

العطرة الإنسانية والبشرية والتشريعية الإسلامية في ذهن الكاتبة لهذا الكتاب والجامعة لمادته العلمية من مصادرها الصحيحة، والتي جاءت في صورة وردية جميلة بتؤدة وروية بأسلوب عربي سليم يدل على صفاء روح هذه الكاتبة لهذا الكتاب، وإخلاصها في عقيدتها الإسلامية، والجهاد في الدفاع عنه بالحكمة والموعظة الحسنة من خلال بيان شمائل صاحب هذه الدعوة ورسولها، ونشرها بين الناس ليعمَّ الأمن والأمان والسلام بين الأنام في كلِّ زمان، وفي كلِّ مكان.

هذا: والكتاب في مادته العلمية، سهل العبارة، ومفيد للعامة والخاصة، في بيان شمائل النبي ودعوته ورسالته الإسلامية.

وفي نفس الوقت يُعَدُّ مرجعًا علميًّا للباحثين في سيرته وشمائله الإنسانية والنبوية، حيث جاءت المادة العلمية لهذا الكتاب في مراجعها الأساسية من القرآن الكريم، والسنة النبوية وسيرتها، وكتب التراث والتاريخ الإسلامي القديم والحديث، والشمائل المحمدية والطبقات الكبرى، والطب النبوي التي بلغت جملتها ثلاثة وأربعين مرجعًا علميًّا متخصصًا في موضوع هذا الكتاب.

ومع اطمئناني الكامل للمادة العلمية لهذا الكتاب وصحتها، وأمانة المؤلفة له الدكتورة (مرفت محرم) فإنني أوصي بتخريج الأحاديث والآثار الواردة بالكتاب والإحالة إلى مصادرها بالهامش، والإشارة إلى جميع المراجع التي تم الاعتماد عليها في مادة هذا الكتاب، سواء كان ذلك بالنص أم بالمضمون؛ وذلك لتعمَّ الفائدةُ في مجال البحث العلمي للعامة والخاصة للمسلمين وغيرهم، حيث خلا الكتاب في معظمه من هذه الإحالات مع عظيم تقديري لجهد المؤلفة الدكتورة (مرفت محرم) في جمع مادته العلمية من مصادره الشرعية، وإخراجه إلى حيز البحث العلمي والاطلاع، ودعاؤنا لها بالتوفيق والنجاح في خدمة العلم وطلابه، والإسلام والمسلمين، وأن يكون ذلك الجهد العلمي في ميزان حسناتها عند الله.

والله الموفق والهادي إلى الحق وإلى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباب الأول

الشخصية المحمدية

رسالة إلى الحبيب

ألا ترى معي قارئي الكريم، أننا أصبحنا وأضحينا وأمسينا بعيدين كلَّ البعد عن نهج الرسول، ندعو فلا نحظى بالقبول. نشكو ونضيق بالدنيا والحياة، وأمامنا الطريق الموصل للنجاة!

هذا هو حالنا الحليك، الذي يدعونا بقلب رقيق إلى المناجاة:

فيا رسولنا الكريم – رسول رب العالمين – نسألك بصادق عهدك، وبعظيم رسالتك: هل نحن أهل لمحبتك؟

نحن الفقراء في أرض الله، وتحت سماه، أردنا مخاطبتك بمناجاة:

نشكو إليك فيها حالنا المخيف، الذي حال بيننا وبين جوهر دينك الحنيف!

فبماذا نبدأ شكوانا، ونستمد بمدد منك قوانا؟ بعد أن بلغ بنا الهوان هوانا!

تفرقت الأمة وازداد الشقاق، وعمت الغمة وانهارت الأخلاق؛ بخروجنا عن نطاق هديك الخلاق. انتزعت الرحمة من القلوب، وتراكمت الذنوب، وساد الفساد بين العباد، وتوغلت الأحقاد والضغائن، واستمسك اللهاة بكل فعل شائن!

انقسمنا على أنفسنا انقسام الجهلاء؛ فسهل أمر اختراقنا من قبل الأعداء، وظهر منا الخائن والغادر والمتحالف، ونصبت المشانق لكل رأي مخالف!

لقد دخلت المادة من باب العبادات، على نحو جعل الإخوة والأخوات يتقاتلون من أجلها، ويدفعون حياتهم ثمنًا لها.. تفككت اللُّحمة، فلا رحم يُوصل ولا رحمة!

وتنازع البشر فيما بينهم نزاع الألداء، حتى أن بعض العلماء أضحوا يرفعون لواء الفتنة والبغضاء! فذهب الصفاء والنقاء، لقاء أطماع سياسية أو مكاسب شخصية؛ فتفرق الدين إلى فرق وجماعات، تحت العديد من المسميات، كلٌّ منها بات يدَّعي وحده النجاة!

لقد نسنا يا رسول الله ما تركته فينا من ألفة وسكينة، ومحبة ومؤاخاة؛ فادَّعى البعض أنه مبعوث العناية الإلهية، وراح بلا روية يضع الجميع بإصرار في قائمة الكفار، وكأنه مالك مفاتيح الجنة والنار!

لقد نسي هؤلاء الأدعياء، النهج الذي جئت به يا خاتم الأنبياء..

أشهروا في وجه المجتمع سيوف البغض والكراهية والعداء؛ فكشروا عن أنيابهم، ودعوا لأنفسهم دون غيرهم دعاء حب الذات بأنانية بغضاء.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنَّ أعرابيًّا دخل المسجد، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس، فصلى ركعتين ثم قال: "اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا" فقال النبي: لقد تحجرت - ضيقت – واسعًا يا أعرابي، ثم ما لبث الأعرابي أن بال في ناحية المسجد؛ فأسرع الناس إليه، فنهاهم النبي وقال: إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين، صبوا عليه سَجْلًا من ماء" رواه البخاري

لقد نفَّروا الناس أجمعين من دينك السمح القويم؛ فضيقوا واسعًا، وعسَّروا المُيَسَّرَ، وراحوا يفسرون ما سبق أن فُسِّرَ على نحو مُعَسَّر.

ضاق النطاق حول الأعناق، ونسوا الرحمة واللين وما وصفك به الله ربُّ العالمين: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".. "وإنك لعلى خلق عظيم"، ونسوا ما ورد في الحديث الشريف: حدثنا عبد السلام بن مطهر قال، حدثنا عمر بن علي بن معن بن محمد الغفاري، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: "إن الدين يسر ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والرَّوْحة وشيء من الدُّلجة".

لقد نسوا أن من رحمتك المهداة، ونعمتك المسداة، أن قيل لك يا رسول الله: "أُدْعُ على المشركين" فقلت: "إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة" رواه مسلم

لعلك يا سيدي تسأل عن أحفاد حمزة وخالد وعلي وطارق بن زياد، ولعلك تسأل عمن خلف ابن الخطاب في عدله وحكمه الذي عنَّا غاب، وعن صدق الصديق وعثمان وعلي وبقية الأصحاب!

يخجلنا الجواب يا رسولنا الكريم، فشأن أحفادهم مهين مهين!

هذا حالنا يا سيدي الذي حال بيننا وبين استجابة الدعاء، وأوقعنا في شرك العناد والشقاء...

لكن بشائرك التي بشرتنا بها لم ننسها، فهي أملنا وحلمنا الودود الذي فاتنا، ولن يتحقق إلا بالنهوض من كبوتنا بتوكل دون تواكل معهود.

لقد حملت يا سيدي هموم أمتك، ورفعت من شأنها، وأردتها عالية بين الأمم جميعًا، وتركتها وأنت راضٍ عنها بإخلاص؛ فكانت خير أمة أخرجت للناس.

فما أحوجنا في هذه الفترة الدقيقة من حياتنا، إلى مراجعة مسيرتنا وسجل أعمالنا على ضوء الكتاب وسنة نبينا؛ لنستعيد أمجادنا التي كنا عليها، والتي وعدنا بها، ونستطيع بإذن الله تحقيقها.

فعلى قدر استقامة الأمة تتحقق خيرتها، وعلى قدر انحرافها تظل تنحدر إلى أسوأ حالاتها؛ فتصير إلى ذلك الغثاء الذي تحدثت عنه يا خاتم الرسل والأنبياء في قولك الذي جاء، رائيًا بنور الوحي رأيًا مرئيًّا: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها؛ فقالوا: أمن قلة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: لا، إنكم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل".

واليوم ننادي بالسير على نهجك، والرجوع إلى سنتك وهديك؛ لكي ينجو هذا الغثاء من تداعي الأمم عليه؛ فينهض من وهدته بإيمان وحماس، ليصبح خير أمة أخرجت للناس..

فما أحوجنا أن نقتبس من نورك قبسات نقوّم بها ما فات من اعوجاج في حياتنا، ونستشرف الآتي بقلوب مفعمة باليقين والإيمان، ونقرّب الجيل الجديد من الإسلام.

وفي محاولتي ارتشاف قطرة من قطرات فيض الرسول، لا أدَّعِي الكمال، لكنها محاولة على كلِّ حال، أجتهد فيها بقدر ما ألهمني الله في هذا المجال من إلهامات، وما منحني من عطاءات؛ لندرس سيرتك العطرة من جديد، ونقترب من شخصيتك وعظمتها؛ لنقتدي بها ولا نحيد!

السيرة العطرة

منهج للإصلاح والدعوة

تظل سيرة الحبيب منهلًا لكلِّ دارس أريب؛ فتفيض بقطراتها النورانية التي تنعش الأفئدة بمتعة روحية، وتعيدنا من جديد إلى منبع الهداية البعيد عن التفريط أو التشديد.

فتجمع السيرة النبوية العطرة، ما يتوافق مع استواء الفطرة، لتصبح دراستها واستخلاص عبرتها ودلالتها المنبع الأصيل للهداية إلى الله، ومنهاجًا لحياة البشر جيلًا بعد جيل، فيضمن بها أهل الدعوة والإصلاح وصول رسالتهم بنجاح، والتي ينشدون من خلالها فلاح الأمة، وإزالة الغمة والكروب؛ فتتفتح لدعوتهم القلوب والعقول، اقتداء بالرسول الحبيب المحبوب.

ولأن النبي الكريم مرسل أمين ومصلح عظيم؛ فسيرته النبوية تتيح لمن وعَى وتدبر الكثير من الدروس والعبر، وهي واضحة للعِيَان منذ طفولته وحتى وفاته عليه الصلاة وأتم التسليم.. وقد وصلت تلك السيرة النبوية للأمة المحمدية محققة بطريقة علمية، وقوة ثبوتية لا مجال فيها للمراء أو الجدال.

ولعل ما يلفت النظر في حياة سيد البشر الجميل، أن تلك الرسالة التي أكرمه بها ربُّ العالمين؛ لم تخرجه عن إنسانيته، فسيرته لم تُضْفِ عليه صفة الألوهية، يأمره ربُّ البرية: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾** الكهف ١١٠

إن السيرة النبوية شاملة لكلِّ نواحي الإنسانية، فهي تحكي لنا صفاته في شبابه، وسلوكه مع أترابه؛ فقد كان أحلى من العسل المصفَّى، وأغدق من الوعد الموفَّى، جلي الصفاء والبهاء، نبيل الخلق، راجح العقل والذكاء...

ثم تحكي لنا سيرة رسول الله الداعي إلى الله، الملتمس إحدى الوسائل لقبول دعوته، الباذل منتهى طاقته وجهده في إبلاغ رسالته في لين جانب وثبات عزيمته..

كما تحكي سيرة الرسول المربي المرشد، والمعلم الملهم، الذي يشرف على تربية أصحابه تربية مثالية، فينقل فيها من روحه الطاهرة إلى أرواحهم الزكية، ومن نفسه العالية وخلقه العظيم إلى نفوسهم المتلقية الواعية؛ فيحاولون الاقتداء به في كلِّ الأمور،

بكل خلق جميل، وأدب نبيل مشكور.

وسيرته تحكي لنا سيرة المحارب الشجاع لجسور، والقائد المنتصر الظفور؛ فكأنه الحسام الباتر، والأسَلُ العاتر، والسيف القصال، والأسمر العسال، والحسام إذا لمع، والرمح إذا أشرع..

وكان في آن السياسي الناجح؛ فبين لهم أن الإسلام قد أخذ كلَّ وسيلة من الوسائل العصرية لنشر الدعوة، كما حدث في رحلة الحديبية، فكلٌّ يجري في حينه مع مناسبته وأسبابه، فهو لا يركن إلى السيف وحده رغم قدرته عليه، ولا إلى السِّلم وحده رغم ميله إليه؛ بل يضع كليهما حيث يوضع، ويدفع بكليهما حيث ينبغي أن يدفع.. وهو الحكم المتصرف حيث يختار ما يختار، وليس الآلة التي يسوقها السِّلم أو الحرب مساق الاضطرار. كما كانت قدرته الدبلوماسية غي التعاهد والتهادن بحكمة وروية، نموذجًا يُحتذى، كما حدث في صلح الحديبية.

ففي الوقت الذي تجلت فيه قدرته على قيادة الجيوش الحربية، كان الجار الصادق الأمين في معاهداته السلمية!

فسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – شاملة لكل النواحي الإنسانية، بما يجعله القدوة الصالحة لكلِّ داعية، وكل قائد، وكل زوج، وكل صديق، وكل مربٍّ، وكل سياسي، وكل قائد ورئيس!

إن سيرة محمد – صلى الله عليه وسلم – تعطينا الدليل الذي لا ريب فيه على صدق رسالته ونبوته، فهي سيرة إنسان كامل سار بدعوته من نصر إلى نصر فارق، لا عن طريق المعجزات والخوارق.

فقد تعرض في دعوته للإيذاء، وصبر على هذا الابتلاء حتى أصبح له أنصار أشداء، استطاعوا الصمود في وجه أعداء الدين سنوات، متمسكين بسلاح الشدة في حين، واللين أحيانًا كثيرة، حتى لفت الجزيرة العربية تلك الدعوة الإسلامية، وجاء الاتباع عن طريق الإقناع، بإيمان وتسليم بصدق الرسالة التي حملها إليهم رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

إنها سيرة أعظم إنسان عرفته البشرية، فكان خير البرية الصادق الأمين المبعوث رحمة للعالمين؛ فقد عمر الله بشكره البقاع، وأمتع بذكره الأسماع، وأمر الأنام بالصلاة والسلام عليه في خشوع تام، عليه الصلاة وأزكى السلام. فسيرة هذا النبي الجميل،

خير الخلق أجمعين، تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة، فما أحسن حكمته ورويته وحديثه وهدايته!

شخصيته

نحن في هذا الفصل نتكلم عن شخصية محمد – صلى الله عليه وسلم – بأسلوب جديد في الكتابة، بعيد كلَّ البعد عن التعقيد أو الرتابة. أسلوب يقوم على المصاحبة بلا استعلاء، واليقظة والتأمل بكل صفاء ونقاء، في أحوال سيد الخلق الذي جاء متممًا لرسالة السماء. ودراسة المنابع الخفية التي أثرت في سلوك وأخلاق خير البرية، على نحو ما جاء بجلاء في القرآن الكريم: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴿٤﴾﴾ القلم

تلك المنابع الوفيرة، والمواقف الخطيرة الخفية، تطلعنا على حياة مجتمع من المجتمعات العربية، التي نشأ فيها خير البرية، النبي العدنان عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

فالأحداث جليلة الخطر في أطوار الأفراد والشعوب والأمم، والدول والحضارات، وهي بهذا جديرة بالعديد من الأبحاث والدراسات؛ للتعلم والاعتبار بهدوء وروية، وتحليل أطوار النفس الإنسانية في ضوء دراسة هذه الأحداث الكبرى في ذاتها. تلك الدراسة لا تقل أهمية عن تحليل مكونات النفس الإنسانية، بل تربو عليها. فمن خلالها نستطيع فهم واستيعاب أصل مكوناتها.

وذلك لنتعقب الظاهر هنا، وصولًا إلى أصوله الباطنة، وهي محاولة تحتاج منا إلى قراءة واعية ماهرة، تشبه تعقب الفاحص لفروع النبات الظاهرة وصولًا إلى جذوره الغائرة.. وهو شوط أصطحب فيه القارئ الصديق لنتلمس الطريق والطريقة؛ للصعود إلى سماء الحقيقة، مستعينين على السداد فيما نويناه، بعقلٍ من الله وهَبَنَا إياه.

١- العالم قبل بعثته

ها هو العالم في حالة شارفت على النهاية، والدنيا في حاجة إلى رسالة وهداية. عالم يتهيأ للهدم والانهيار الشديد، ويتطلع إلى تغيير المسار نحو بناء جديد.

عالم فقد عقيدته فاهتزت ثوابتُه، واضمحل مكانه ومكانته، واختلَّ نظامه، واهترأ سلطانه. فبزوال القوة الإيمانية العظيمة؛ غادرت الطُّمأنينة نفوس البشر، وزال الخير وحلَّ الشر، وانتشر كلُّ فعل شائن، وسادت الوساوس والضغائن.. فبلا إيمان لا مجال للحديث عن الأمان، ولا عن العدل بين إنسان وإنسان، ولا فصل ولا تمييز بين طغاة وأبرياء، ولا بين مختلين وعقلاء، ولا بين أصحاب حقوق وأدعياء.

ففي أيدي ثلاث دول عظمى تمركزت القوى: دولة الفرس، ودولة الروم، ودولة الحبشة.

فخرجت الروم من الدين المسيحي القديم إلى الجدل العقيم؛ ففقدت قوتها، وضاعت هيبتها، وطمع فيها من كان يحتمي بها.. فهذا (هرقل) أجج الخلاف الطائفي بين الرومان بطريقة قمعية دموية، فأخذ يذبح من يخالفه في عقيدته المذهبية، في ظل فساد السلطة الرومانية الحاكمة ماليًّا وإداريًّا وسياسيًّا، حتى وصل بهم الحد إلى أن فرضوا ضريبة على الشعوب تسمى ضريبة الرأس، وهي ضريبة يدفعها المواطن نظير ترك رأسه دون ذبح!

أما فارس؛ فقد سخر المجوس من دينهم، وأضحت الشهوات والفتن والغيلة كل حياتهم؛ فقد أدمنوا عبادة النار، وعبادة (كسرى) الطاغية، الذي كرس الطبقية والكراهية بين صفوف الشعوب الفارسية؛ ومن ثم فقد وجدنا في هذا الزمان والمكان استعدادات عامة للانتحار الجماعي العام!

والحبشة ضائعة بالتبعية بين عبادة الأوثان والهمجية، وليست لها رسالة في الدنيا، ولا سجل أعمال تحفظه لها البشرية.

أما جزيرة العرب الحرة، فتتأهب لإقامة دولة لأول مرة، بعد أن تيقظت لوجودها، وشعرت بمكانتها، وأرادت استعواض ما فاتها؛ درءًا للمخاطر التي تتعرض لها: ففي أيديها تجارة العالم بأجمعها، ويحوم حولها من يريد إخضاعها وابتلاعها.. فهرقل الرومي يرسل إلى مكة من يحكمها ويروعها، وأبرهة الحبشي يزحف إلى مكة ليهدم الكعبة التي بها، ويبني في اليمن كعبة غيرها، وفارس تطغى على شرق البلاد

وجنوبها.

وها هي مكة بقعة واحدة اجتمعت فيها ثروة الجزيرة العربية، فضلًا عن المكانة.

وإن قريشًا عصبة واحدة اجتمعت في أيديها ثروة مكة فضلًا عن السيادة، فخطرٌ يهددها من الخارج زادها يقظة وانتباهًا لوجودها، وخطرٌ من داخلها يدفع بها دفعًا إلى الزوال، أو إلى استكمال النقص في إحيائها.

فالديانة التي يزعم معظم العرب أنهم على دين (إبراهيم عليه السلام) لم تكن سوى ديانة شرك وعبادة للأوثان، واعتقاد بات بالوهميات والخرافات، غير أنهم حافظوا بشكل جائر على بقايا من الدين الحنيف، مثل: تعظيم البيت والطواف، والحج والعمرة، والوقوف بعرفة ومزدلفة، وإهداء البُدْن.

وكانت لهم مراسمُ وتقاليدُ متبعة، في عبادة الأصنام مبتدعة، فعمرو بن لُحَي ابتدع أكثرها فتونًا، غير أنهم كانوا يظنون أن ما أحدثه بدعة حسنة وليس تغييرًا في الدين على نحو خطير وعظيم! فكان من مراسم عبادتهم للأصنام أن يحجوا إليها، ويطوفوا حولها، ويتذللوا عندها، ويتقربوا إليها بالقرابين فيذبحوا وينحروا لها بأسمائها، وكانوا يتقربون إليها بشيء من مأكلهم ومن مشربهم، ويخصصون لها نصيبًا من حرثهم وأنعامهم، زهم يعكُفُون إليها، ويحتمون بها في الشدائد، معتقدين أنها تشفع لهم عند الله، وتزيح عنهم كلَّ بائد.

وكانت العرب تستقسم بالأزلام، والميسر والقِدَاح، وهو ضرب من ضروب القمار، ويشربون الخمر جهارًا نهارًا، ويؤمنون بما يأتيهم بهم الكهنة والعرافون والمنجمون من أخبار؛ فكانت الطيرة (التشاؤم) وغير ذلك من معتقدات وأفكار.

هذا المناخ الذي أعلن عن عوزه واحتياجه، لمن يصلح ما عابه وما شابه؛ فيرشده إلى الهداية العظيمة على طريق الحياة، ويبني عقيدته السليمة بالمعرفة الحقة بالله.

هذا هو المناخ الذي سبق انفلاق الصبح وبزوغ الشمس، مولد النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

٢- الصفات العظيمة لمكانة الجزيرة العربية

رغم أن أهل الجاهلية كانت فيهم رذائل دنيوية، وأمور ظاهرة ومخفية ينكرها العقل السليم الآن، ويأباها الوجدان، إلا أنهم اتصفوا في آن بأخلاق بهية فاضلة حميدة، تنم عن مشاعر إنسانية راقية فريدة، منها على سبيل المثال:

الكرم: فقد كانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم، تعبيرًا عن جميل شمائلهم وطباعهم، فكان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد أو قيظ الصيف، والجوع يفعل به فعلته، وليس عنده من المال إلا ناقته، التي هي حياته وحياة أسرته؛ فتدفعه شدة الكرم والجود، فيقوم إليها ويذبحها لضيفه الموجود.

الوفاء بالعهد: فقد كان العهد دينًا عندهم، يتمسكون به، ويستهينون في سبيله قتل أولادهم، وتخريب ديارهم، وما المثل القائل: أوفى من السَّمَوْءَل منا ببعيد!

عزة النفس وإباء عن قبول الخسف والضيم: وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة وشدة الغيرة، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان، إلا أثاروا الحروب بلا توانٍ، وكانوا لا يبالون بالتضحية بأنفسهم في هذا السبيل إذا اقتضى الحال.

المضي في العزائم: فإن عزموا على شيء يرون فيه المجد والافتخار، لا يصرفهم عنه صارف الأقدار، بل يخاطرون بأنفسهم في سبيل العزة والانتصار.

الحلم والأناة والتؤدة: فقد كانوا يتمدحون بها لما لها من دليل كمال، إلا أنها كانت فيهم عزيزة صعبة المنال؛ لفرط شجاعتهم وسرعة إقدامهم على القتال.

السذاجة والبداوة: وعدم التلوث بالملوثات الحضرية بمكائدها وصنائعها المزيفة البهلوانية، فكان من نتائج فطرتهم السوية صفات: الصدق والأمانة، والنفور من الخداع والغدر والخيانة.

نرى أن هذه الأخلاق الثمينة، والصفات العظيمة، إضافة لِمَا كان لجزيرة العرب من مكان ومكانة، بموقعها الجغرافي بالنسبة للعالم؛ كانت سببًا في اختيارهم لحمل عبء الرسالة العامة، وقيادة الأمة الإنسانية والمجتمعات البشرية، قيادة أساسها دعم الأخلاق الفاضلة، ونبذ الأخلاق الشائنة، وإصلاح المجتمعات في كل مكان، بما يحقق الإيمان والأمان، وهذا هو ما سعى إليه الإسلام.

٣- القبيلة

ينتمي محمد إلى قبيلة قريش التي كانت تسكن مكة بأوديتها، وتقوم بخدمة الكعبة مركز الأرض ونواتها، وإطعام الحجاج وتوفير الماء لهم من زادها وزوادها، وقد توارثوا هذه المهامَّ والمكانة من جدهم المرحاب قصي بن كلاب، الذي أنشأ دارًا بجوار الكعبة، أطلق عليها اسم دار الندوة؛ للتشاور في شئون القبيلة والحج، وحلِّ الخلافات، وهو الأمر الذي بات موكولًا فقط لأبناء تلك القبيلة، ذات القيمة والمكانة العظيمة.

٤- بيت النبوة

وتعرف أسرته بالأسرة الهاشمية، نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف.

هاشم بن عبد مناف:

وهو أبو عبد المطلب جد الرسول، وقد تولى السقاية والرفادة، وهو الدور المناسب بعد تصالح بني عبد مناف وبني عبد الدار على اقتسام المناصب؛ فقد كان موسرًا ذا شرف كبير وعظيم، وهو من أطعم الثريد للحجاج القادمين، وكان اسمه عمرًا فما سمي هاشمًا إلا لهشمه الخبز إطعامًا للمحتاجين، وهو أول من سنَّ رحلتين لقريش كما جاءنا من أنباء (رحلتي الشتاء والصيف)، بلا جدال زلا مراء، وفيه يقول الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه

ورجال مكة مسنتون عجاف

سنت إليه الرحلتان كلتاهما

سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وقد قيل إنه خرج متاجرًا إلى الشام، فلما حطت الرحال والأقدام أرض المدينة؛ تزوج سلمى بنت عمرو، أحد بني عدي بن النجار، وأقام عندها في الدار أوان، ثم خرج إلى الشام وهي عند أهلها حاملة بولدها عبد المطلب، فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧م، وسمته شيبة؛ لشيبة كانت في رأسه.

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف:

وهو جد الرسول من بيت تلك الشعبة الوسطى، لع كرم النسب العريق المانح، وليس لؤم الثروة الجامح، والكبرياء الجائح.

ذلك هو بيت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف من صميم قريش الأشراف، ومن ذؤابتها العليا القوية، وإن لم يكن معدودًا من أثرياء القبيلة القرشية.

ورأس هذا البيت عبد المطلب: وهو رجل قويم الخلق، قوي الإيمان فيما آمن به. حكيم في تصرفه وكلامه، مع قوة طبعه، وشدة إيمانه، وهو على هذا التكوين الإنساني الشامخ المؤمن الرصين؛ خليق أن ينجب العقب الذي يبشر بدعوة، وينضح عن دين.

وهو الذي نذر لئن عاش له عشرة بنين؛ لينحرن أحدهم عند الكعبة عن يقين، ثم أحله قومه بعد حين، وأحلته العرافة من نذره المبين، حتى بلغت الإبل مئة بالتمام، وخرجت القداح عليها بسلام.

وهو الذي سأل القائد الحبشي عندما جاء ليهدم الكعبة الغراء، ويسطوَ على الإبل والشياه، أن يرد إليه إبله الآن؛ فقال له السياسي المجرب المداور للكلام: "أراك تسأل عن إبلك ولا تسأل عن الكعبة! فأجابه عبد المطلب جواب الحكيم المؤمن بلا غرور ولا تيه: "أما الإبل فأنا ربُّها، وأما البيت فله ربٌّ يحميه" فإيمانه يتسم بالحصافة والكياسة، فكان كفئًا لدهاء السياسة، .. فلم يكن إيمان العجز والتواكل والاستسلام، بل بالقوة والحكمة كان الإيمان.

ففي هذا الوقت من الزمان، كان عبد المطلب بمثابة الزعيم في هذا المكان؛ فقد أنقذ الكعبة من هلال مقق ووبال، وعندما أمر قبيلته بصعود الجبال، والدعاء بكل تضرع وإيمان أن يحمي الله بيته الحرام؛ فاستجيب الدعاء، وأرسل الله طيورًا من السماء، تحمل حجارة من سجيل، أبادت جيش أبرهة العظيم: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥**﴾ الفيل

ومن مآثر عبد المطلب أيضًا: أنه أعاد حفر بئر زمزم، وكان يقدم الطعام والماء للفقراء من الحجاج، على غرار ما كان يفعله الأجداد، فعبر هذا الخلق الكريم، وهذا الإيمان العظيم، وتلك الزعامة والرئاسة، عن فطنة وإيمان وكياسة، ونقاء قلب، وصفاء نفس، وذكاء عقل وفراسة؛ فليس عجبًا أن تنجب حفيدًا نبيًّا بهذا البهاء، في زمن يستدعي الأنبياء.

هذا هو جد الرسول الكريم، الذي تولى احتضانه وتربيته بعد وفاة والده، وهذه هي لمحات من شخصيته.

عبد الله: وهو والد الرسول، وقد كان إنسانًا من طينة الشهداء، يتجه إلى القلب الإنساني بكل طهر ونقاء، بما فيه من حب وحنو ورحمة وصفاء، فهو الفتى الذي اسمه عبد الله؛ فسلم من أسماه؛ فقد اختير للفداء.

فأبوه قد نذر وشعرت أمه بالخطر؛ فجاشت له شفقة قومه، حتى تركه لهم القدر، لكن إلى حين، وهو الفتى الوسيم الذي تحدثت الفتيات في الخدور عن جماله وحيائه، وفطنته وذكائه..

وهو الفتى الذي أقام مع عروسه ثلاثة أيام لا غير، ثم سافر ليتجر ولم يكن به مرض ولا ضير؛ فمات وهو غريب بعيد عن المحبين، وولد له نسله الكريم وهو دفين.. وهكذا تتمثل البصائر الخاشعة، تلك الحكمة الرائعة في سيرة آباء الأنبياء، والسلالة التي تصل بين الآخرة والدنيا، بين الأرض والسماء، بين عالم البقاء وعالم الفناء.

أبو طالب:

وعرف باسم عبد مناف، وقد تولى النبي بعد وفاة جده عبد المطلب، وتكفل به ورباه صغيرًا، ونصره نبيًّا ورسولًا، وقال في مدح النبي:

إن ابن آمنة النبي محمدًا عندي يفوق منازلَ الأولاد

راعيتُ فيه قرابة موصولة وحفظت فيه وصية الأجداد

٥- مولد النور

ولد الحبيب المصطفى في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول الموافق ٥٧١ ميلادية، المشهور بعام الفيل؛ فأشرق على الدنيا نور وضعته أشرف عقيلة في قريش آمنة بنت وهب.

وكانت تحس - بينها وبين نفسها - أن حملها بوليدها ليس حملًا عاديًّا، فلن يكون طفلها كسائر الأطفال بشكل عام؛ فقد أتاها آتٍ في المنام فقال لها: "إنك حملتِ بسيد هذه الأمة، فإذا وقع على الأرض ساعة ولادته؛ فقولي: "أعيذه بالواحد، من شرِّ كلِّ حاسد، ثم سمه محمدًا". وقد روى أن إرهاصات بالبعثة النبوية وقعت عند ولادته المحمدية؛ فسقطت أربعَ عشرةَ شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بفارس بعد أن غاضت.

فقالت يوم ولادته: "خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام".

وقد رأى عبد المطلب – جد الرسول – في منامه كأن سلسلة من الفضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء وطرف في الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها".

٦- نسب النبي

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (واسمه شيبة) بن هاشم (واسمه عمرو) بن عبد مناف (واسمه المغيرة) بن قصي (واسمه زيد) بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (وهو الملقب بقريش)، وإليه تنتسب القبيلة، بن مالك بن النضر (واسمه قيس) بن كنانة بن خزيمة بن مدركة (واسمه عامر) بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان..

وهو نسب زكي، فلم يزل ينتقل من خير الآباء إلى خير الأبناء، حتى انتهى إلى كبير مكة وقريش في الجاهلية عبد المطلب بن هاشم، ثم إلى ابنه عبد الله والد المصطفى أشرف الناس نسبًا عجمًا وعربًا؛ وهذا هو النسب الزكي: إبراهيم خليل الله دعامه، وإسماعيل سنامه، وكنانة زمامه، وقريش نظامه، وهاشم تمامه.

اختاره الله من أرفع البيوت والمنازل، وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم؛ فأنا خيار من خيار من خيار".

وقول عمه أبي طالب:

إذا اجتمعت يومًا قريش لمعشر

فعبد مناف سرها وصميمها

وإن حصلت أنساب عبد منافها

ففي هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت يومًا فإن محمدًا

هو المصطفى من سرها وكريمها

ولا غرو، فلم يكن في آبائه مسترذل ولا مستبذل، بل كلهم سادة وقادة.

٧- الرسول

ولد النبي الذي تتطلع إليه الأمة؛ ليزيل بهديه الغمة، فهو النبيل صاحب النسب العريق. حاله رقيق. فقير وليس بالغني المترف؛ كي لا يطغيه بأس النبلاء والأغنياء، فيغلق قلبه..

يتيم بين رحماء. ليس بالمدلل إلى الحد الذي يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال. وليس هو بالمهجور المنبوذ، الذي تقتل فيه القسوة والعوز روحَ الأمل وعزة النفس واليقين، وفضيلة العطف على الآخرين.

خبيرٌ، خبرةٌ نادرة، بكل ما خبره العرب من دروب العيش في البادية والحاضرة.

تربى في الصحراء والوديان وألف المدينة، واشتغل برعي الأغنام وهو في سن صغيرة؛ فتعود الاعتماد على النفس، واكتساب الرزق بالكد والتعب، ولعلَّ الحكمة في رعي الأنبياء قبل النبوة للغنم، هو إعدادهم لرعاية الشعوب والأمم، فمن تلك الرعاية التي يرعونها، ويقومون على شئونها، يكتسبون قدرات وصفات تؤهلهم لِمَا هو آتٍ، بالحلم والشفقة، والعطف والرحمة، واعتياد الصبر وطول البال، والتريث والأناة، وزجر الباغي العنيف، وجبر كسر الضعيف. كما اشتغل بالتجارة، فكان الأمين بغير خلاف، وشهد الحروب والأحلاف، واقترب من الثراة ولم يبتعد عن الفقراء، وهو

خلاصة الكفاية العربية، وعلى صلة قوية بالدنيا التي أحاطت بقومه؛ فهو لا يجهلها فيغفل عنها، ولا يغامسها فيغرق في لُجتها.

خلق محمد بن عبد الله بخلق أراده له الله؛ ليكون رسوله الأمين، مبشرًا بدين قويم يتسق مع خلقه الكريم، ويتوافق مع فطرته في تمازج واتحاد، وهي الرسالة العالمية التي أعده لها الله أكمل إعداد.

٨- تعريفه بنفسه

قال ابن إسحاق: وحدثني ثور بن يزيد، عن بعض أهل العلم، ولا أحسبه إلا خالد بن معدان الكلاعي: أن نفرًا من أصحاب رسول الله قالوا له: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، قال: "نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا؛ إذ أتاني رجلان، عليهما ثياب بيض وبطست من ذهب مملوءة ثلجًا، ثم أخذاني فشقَّا بطني واستخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بمئة من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، فقال دعه، فو الله لو وزنته بأمته لوزنهم".

٩- بشائر الرسالة

إن الذين شهدوا العلامات وطالعوا البشائر والمقدمات يوم الميلاد، لم يعرفوا مغزاها ومؤداها الذي أراد الله بها أن ينبه العباد، إلا أن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بآماد – بأربعين سنة – ولم يشهدوا بشارة واحدة منها، لن يحتاجوا إلى مشاهدتها ليؤمنوا بصدقها، ويوقنوا بحدوثها.

فقد ولد مع النبي عليه السلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها، فإذا جاز

للمصدق بتلك البشائر أن ينسبها إلى مولده، جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره، ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكذبين، إلا بعد عشرات السنين.

يوم أتت الدعوة بالآيات والبراهين؛ فأضحت غنية عن شهادة الشاهدين، وإنكار المنكرين.

أما العلاقة التي لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها فهي علامة الكون، وعلامة التاريخ.

قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة.

وقالت حقائق التاريخ: لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة.

فإحساس زيد بن عمرو بن نفيل كان عميقًا، وشعوره بمقدم نبي كان صادقًا، رغم أن زيدًا لم يكن عرافًا ولا منجمًا؛ لكنه كان رجلًا مفتوح العينين على واقع البيئة، وروح العصر.. فبالسليقة أدرك وجود حاجة تاريخية، فبلغ إحساسه بحتمية هذا المجيء الخفاق، وأنه لن يتأخر على الإطلاق، وكان يود أن يكون هو صاحب هذه الرسالة؛ فيحظى بكل ما في هذا الاختيار من شرف ومكانة، أو يجمعه الله بحالته مع من يكون الاختيار من حظوته..

إن هذا الإرهاص والتنبؤ لابن نفيل، يخضع بلا معاناة في التعليل لما أسميناه بدقة علمية (ضرورة تاريخية) كانت تبشر بمجيء محمد (صلى الله عليه وسلم).

الرسول والرسالة

ونحن بصدد الحديث عن الرسول والرسالة، أصطحبك عزيزي القارئ لنطلع على الحالة الآنية، التي توضح بصورة جلية كُنْهَ الشخصية وعظمتها، وقوة إيمانها وثبات صلابتها الشجاعة، المقاومة للمساومات والمراوغات الخداعة، الهادفة إلى صرفه عن المهمة التي بُعث لأجلها؛ بُغية إلهائه عن تبليغها.

لكن هيهات، فقد قاوم كل الإغراءات، وتحمل كل الإهانات والتهديدات بثباته على عقيدته، وحرصه على إتمام دعوته ونشر رسالته التي كلفه الله بها، متوكلًا عليه مستعينًا به في مسعاه.

صدع الرسول بالرسالة بروح المؤمن الثابت الرصين، متمسكًا بقوة يقين بنصرة رب العالمين، ولنبدأ معًا رحلتنا الإيمانية؛ لنشاهد مواقفه الإنسانية، من تلك الاختبارات والابتلاءات القوية:

١- موقفه من عمه أبي طالب:

حين قال له – ويا له من قول خطير – إن قريشًا تشدد عليه النكير؛ بسبب ما يبسطه عليه من حماية، وما يوليه له من رعاية، وإنه – على كبر سنه – مهدد باجتماعهم على مقاطعته وعداوته، وقد قالوا له: إنَّا والله لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك، حتى يهلك أحد الفريقين.

فتقدم عمه إليه كناصح أمين، قائلًا له بقلب شفيق: أبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق!

هذا عمه حصنه الأوحد وحاميه، يوشك أن يتخلى عنه ويصديه – يفارقه – ولن يكون بعد هذا الموقف المحدد إلا الهلاك المؤكد. إما هذا، وإما أن يُحْرِجَ عمَّه ويبقى على حمايته له؛ فيتعرض معه لمخاطر مهلكة، في تلك المعركة غير المتكافئة.. تلك بحق معضلة شائكة!

فعمُّه هو الذي ربَّى وكفل، بعد جده الذي رحل! إنه هو الذي دلل وأعزَّ هذا اليتيم، ومحمد أوفى الناس بالمعروف وأحفظهم للجميل، وأبقاهم على الوداد، وأبر العباد وأقسطهم جميعًا، فأي حرج شعر به أمام هذا الرجاء؟

وأي تورط هذا الذي جاء على لسان كافله ومربيه؟

وأي امتحان لمعرفة البر وعرفان الجميل والنخوة التي كانت صفات أساسية فيه؟

إن الامتحان النفسي في هذا المقام، والإكراه المعنوي، والضغط الأدبي الذي كان، لهو أعنف آلاف المرات، من اللطمات والبصقات والسخرية واللوم، التي كيلت له من سفاء الأحلام!

وأطرق محمد إطراقة تعبر عن حزنه وهمِّه؛ فقد كان هلاكه أهون عليه من تخييب رجاء عمِّه.. إلا أن ما يحمله من أمانة، وما أمره الله به من تبليغ للرسالة؛ جعله ينطق بشجاعة الإيمان ورسوخ اليقين:

- "والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر؛ ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه".

ولم يخذل العم الشهم الكريم ابن أخيه في موقفه الثابت على الحق المتمسك باليقين، بل ثابر على نصره، وقال له بحنان واطمئنان، وهو مأخوذ بذلك الإيمان:

- "اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء تكرهه أبدًا".

٢- الموقف الثاني: مع ذؤابة قومه (قريش):

هؤلاء ذؤابة قومه (قريش) عند الكعبة يجتمعون، ويرسلون إليه رسولهم يقول:

- "يا محمد، إنا والله لا نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك! فإن كنت إنما جئت بهذا الحدث تطلب مالًا؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا. وإن كنت إنما تريد به الشرف فينا؛ فنحن نسودك علينا. وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا. وإن كان الذي يأتيك رِئْيًا تراه – جنيًّا – قد غلب عليك؛ بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك!

هو إذن ملك حاضر بغير عناء، وثراء يأتي دون انتظار لبذل جهد واصطبار..

فأي مساومة هذه التي كانت رأس المساومات؟ وأي أفكار تلك التي زانت هذه الإغراءات؟ إغراءات لو عرضت على غيره لقبلها، بل وسال لعابه لها، لكنه واجهها برفض قاطع بات، عبر عنه بحسام الكلمات ذات المغزى العميق والدلالات:

- "ما بي ما تقولون! ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم؛ فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، وهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم".

كلمات نطقها الرسول الكريم، المبعوث رحمة للعالمين، أثبتت عن يقين أنه المكلف

بالبلاغ الأمين، فلا مأرب له من وراء دعوته، غير إنقاذ قومه وأمته من الشرك والضلال المبين، وقد استنفدت المآرب بشكل كامل في ذلك العرض الشامل من الجاه العريض إلى الملك العضوض.

ولكن، ما الملك؟ وما الجاه؟ وما الثراء؟

هباء هو، بل أهون من الهباء! وفي أي وقت يقول ذلك؟

في وقت عزَّ فيه النصير من البشر، وطارده السفهاء بالأذى في قريش وغير قريش أينما ذهب. يقوم بأمانة الدعوة إلى الله في قلوب كالحجر، حتى حَزَبَه الأمر، وبلغ منه الضيق مبلغه؛ فتوجه إلى الله بمناجاة عندما كان في (الطائف) بلا معين ولا نصير:

- "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، ويا رب المستضعفين، أنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي.. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك".

هكذا كانت المناجاة تعبيرًا عن خشية من الله، أن يكون هذا الضرب والشَّجُّ والتحقير غضبًا منه عليه، فإن لم يكن ربُّه غاضبًا عليه فلا يبالي بما يفعلون، بل كان دائمًا يقول: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون".

إن هذا هو الصدق الصادق لهذا الرسول الكريم، الشجاع الصبور، المؤمن برسالته، الجهور بها، المتحمل في سبيل توصيلها هذه المواقف ومثيلاتها!

فلم يهتز إيمانه، ولم يغير مواقفه منها، وظلَّ على حاله من الإصداع بالرسالة التي أوصاه الله بها.

ها هي شخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – وعظمته، وإيمانه وتقواه وزهده، ووفاؤه بعهده، وتركه الدنيا والفوز برضا ربه، وإتمام دعوته: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾** المائدة ٣

والسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

التوازن النفسي والسلوكي في شخصية الرسول

إن التوازن الدقيق، والاعتدال الحقيق بين معالم الشخصية الإنسانية، لا يمكن أن تجده إلا في الشخصية المحمدية، شخصية خير البرية، فهو الجامع للشمائل والصفات المليحة، ومحاسن الأخلاق الواضحة الصريحة، فلم يُبَشَّر بها سواه، من ربِّ البرية جلَّ في علاه، في قوله تعالى: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** القلم ٤

إن التوازن النفسي والسلوكي يعد بلا مراء، من أبرز دلائل نبوته الغراء، ويتمثل هذا التوازن بالذات، في الكم الهائل المتعادل من الصفات، فلا تطغى صفة على صفة، ولا توظف صفة محل صفة بأي حالة من الحالات، ويتضح هذا جليًّا فيما هو آتٍ:

التوازن النفسي في شخصية الرسول:

فقد كان ذا نفس سوية، يتمتع بصفات مثالية، يدركها من له أدنى معرفة بالسلوك النفسي وأبعاده الحقيقية، فكان عليه الصلاة والسلام بعيدًا عن العبوس المنفر المثير للريبة، وليس بضحاك ضحكًا يسقط الهيبة، فكان ضحاكًا بسَّامًا مع أهله وأصحابه الكرام. يمازح زوجاته ويلاطفهن ويحادثهن حديث الود والحب والحنان.

كانت تعلو محياه الطاهر البسمة المشرقة الموحية بالإيمان، إذا قابل بها الناس أسر قلوبهم بهاءُ، فمالت نفوسهم بالكلية إليه، وتهافتت أرواحهم عليه..

وكان يمزح حقًّا ولا يقول إلا صدقًا، فيكون مزحه على أرواح أصحابه ألطف من الوالد الحاني على رأس ابنه الوديع الهاني.. يمازحهم فتنشط أرواحهم، وتنشرح صدورهم، وتنطلق أسارير وجوههم؛ فقد قال له أحد أصحابه ذات مرة:

- "أريد أن تحملني يا رسول الله على جمل.."

فقال عليه الصلاة والسلام:

- "لا أجد لك إلا ولد الناقة"

فولى الرجل؛ فدعاه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال:

- "هل تلد الإبل إلا النوق!"

أي أن الجمل أصلًا ابن الناقة.. أخرجه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك.

زلم حزنه والبكاء إلا مما يُحزن ويُبكي العقلاء، في غير إفراط ولا تفريط، فلم يكن بشهيق ورفع صوت بمناجاة، ولكن كان فقط تدمع عيناه، وكان بكاؤه تارة رحمة لميت توفاه الله، وتارة خوفًا على أمته وشفقة ومحاباة، ولمَّا مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه، وبكى رحمة له، وقال بقلب مكلوم:

- "وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون".

التوازن السلوكي في شخصية الرسول:

إن التوازن السلوكي في شخصية الرسول الكريم، جعله القدوة للبشر كافة، فكان للجيش المحارب الشجاع المقدام، كما تمثلت فيه كل جوانب الحياة على نحو ما كان عليه الصلاة والسلام، فهو الأب والقائد، والزوج والزاهد، ورئيس الدولة والعابد، والصديق والقائد، والمستشار والقاضي، والمربي والمعلم والرسول الملهم؛ فكان يمثل كل جوانب حياة البشر، بخيرها دون شر؛ الأمر الذي جعله المثل الأعلى، والقدوة الصالحة، والأسوة الحسنة بشكل صادق أمين، للناس على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم أجمعين، ولنشاهد معًا بعض مظاهر التوازن السلوكي:

١- التوازن النبوي بين القول والفعل:

إن الرسل وأتباعهم هم وحدهم الذين دعوا الإنسانية إلى الحياة بمعناها الصحيح، ومثلوا بسلوكهم العملي هذه الذروة بشكل رائع ومدهش وصريح، ويتضح هذا التوازن السلوكي الرائع بصورة جلية، في حياة الرسول العملية، فهو المعلم الزاهد، والعابد المجاهد، لم يكن ينهى عن شر إلا وكان أول تارك له، ولم يأمر بخير إلا كان أول آخذ به.

قالت عائشة – رضي الله عنها – لما سئلت عن خلق رسول الله:

- "كان خلقه القرآن" رواه مسلم في صحيحه

قال ابن كثير رحمه الله: "معنى هذا أنه صار امتثالُ القرآن - أمرًا ونهيًا - سجية له وخلقًا، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، وهذا ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل".

كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه" فقالت عائشة:

- "لِمَ تصنع ذلك يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟"

فقال عليه الصلاة والسلام:

- "أفلا أكون عبدًا شكورًا" رواه البخاري

وكان رسول الله يفطر من الشهر حتى نظن أنه لا يصوم منه شيئًا، ويصوم حتى نظن أنه لا يفطر منه شيئًا.

وكان عليه الصلاة والسلام، لا تشاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيته، ولا نائمًا إلا رأيته كذلك.

وفي زهده كان يجلس على الأرض تارة، وعلى السرير تارة، وعلى الحصير تارة، وكان بيته رمزًا للائتلاف، من طين متقارب الأطراف، داني السقف في واقعية تعكس رمزية العلاقة القريبة القوية بين السماء والأرض البشرية.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو جالس على سرير مزمول – محمول – بالشريط، تحت رأسه وسادة حشوها ليف، دخل عمرُ وناسٌ من الصحابة؛ فانحرف النبي فرأى عمرُ أثرَ الشريط في جانبه، فبكى، فقال النبي عليه السلام:

- "ما يبكيك يا عمر؟"

قال: "مالي لا أبكي وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا، وأنت على الحال التي أرى!"

فقال: " يا عمر، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟" قال: "بلى".

قال: "هو كذلك".

ومن مظاهر زهده، أن رهن درعه في ثلاثين صاعًا من شعير عند يهودي.

وكان من زهده، وقلة ما في يده، أنَّ النار لا توقد في بيته في ثلاثة الأهلة:

"عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان النبي يبيت الليالي المتتابعة طاويًا، وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم الشعير" رواه الترمذي.

فكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أول الممارسين لِمَا نادى به، وأول العاملين بما علمه لأمته.

٢- الصدق النبوي في الجد والدعابة:

إن الصدق صفة أساسية لا بد أن يتمتع بها لا محالة صاحبُ الرسالة، فلا بد أن يكون صادقًا صدقًا مطلقًا إذا وعد أو عاهد أو أخبر أو بحث أو جد أو داعب.

نلك سمة من السمات الأساسية التي امتاز بها خير البرية، فطابق قوله فعله بمصداقية تامة وحقيقية؛ لذلك لا نجد في أثناء كلامه شيئًا من الباطل بأي حال من الأحوال، فهو صادق القول لا محال، حتى لقبوه بالصادق الأمين، وهي أوضح السمات في شخصية رسول الله، تلك السمات جعلت أول الانطباعات في نفس من يراه، رسوخ تلك الصفات الواضحة الجلية بال مواراة..

فهو الذي جاء بالصدق من عند ربه، فكلامه صدق، وسنته صدق، ورضاه صدق، وغضبه صدق، ومدخله صدق، ومخرجه صدق، ويقظته صدق.. لم يعرف الكذب في حياته، جادًا أو مازحًا، بل حرم الكذب وذم أهله ونهى عنه، وكان الصدق قوله، والصدف عمله وحاله وشغله، فلا كلمة واحدة منه تكلم بها تجافي الحق، أو يخالف ظاهرها باطنها، بل كان صادقًا حتى في لحظاته، ولفظاته، وإشارات عينيه، وهو الذي يقول لمَّا قال له أصحابه:

- "ألا أشرت لنا بعينك في قتل الأسير؟" قال:

- "ما كان لنبي أن تكون له خائنة أعين". رواه أبو داود والنسائي.

فهو الصادق الأمين في الجاهلية قبل الإسلام والرسالة، فكيف تكون حاله بعد الوحي والهداية، ونزول جبريل - عليه السلام – عليه، ليصبح خاتم الرسل والأنبياء، وإكرام الله له بالاصطفاء، والاختيار والاجتباء.

٣- التوازن الأخلاقي في شخصية الرسول:

كانت أبلغ وأجمع الكلمات التي وصفت أخلاق رسول الله بما يميزها من صفات: تواضعه لا يغلب حلمه، وكرمه لا يغلب بره، وصبره لا يغلب عفوه. فهناك توازن

في كل شمائله وصفاته، توزنًا أثبتته سيرة حياته؛ فقد كان من أشد الناس تواضعًا، إلى الحد الذي يمكننا أن نطلق عليه بيقين سيد المتواضعين، المتخلق بقول القرآن الكريم: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ القصص ٨٣

وكان الحبيب – عليه أفضل وأتم التسليم – يجيب دعوة الحر والعبد، والغني والفقير بلا توانٍ، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويدعو لهم بالشفاء، ويقبل عذر المعتذر يتواضع للمؤمنين الرحماء، ويقف مع العجوز ويعطف على المسكين، ويصل البائس ويواسي المستضعفين، ويداعب الأطفال، ويمازح الأهل، ويكلم الأمة، ويواكل الناس، ويجلس على التراب، وينام على الثَّرَى، ويفترش الرمل، ويتوسَّد الحصير، ولمَّا رآه رجلٌ ارتجف من هيبته؛ فقال: "هون عليم، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد" رواه ابن ماجة

وكانت دعوته كلها رحمة وشفقة وإحسانًا، وحرصًا على جمع القلوب على عبادة الله الواحد الديان، وهداية الناس جميعًا إلى نبع التقوى والإيمان، مع الترفق بمن يخطئ أو يخالف الحق، أو يخرج عن الخط الذي اختطه الإسلام، والإحسان إليه وتعليمه بأحسن أسلوب، بحلم وكرم ولين وجود.

كما كان أقرب الناس وأجودهم في الإنفاق، لم يمنع سائلًا، فهو سيد الأجواد على الإطلاق، يعطي عطاء من لا يخشى الفقر يومًا، أعطى غنمًا بين جبلين فمنح مئة من الإبل لكل رئيس قبيلة من العرب؛ فسلم من منح وأعطى ووهب. ومن كرمه أنه – صلى الله عليه وسلم – جاءه رجل يطلب البردة التي هي عليه بتودد؛ فأعطاه إياها دون تردد، فكان لا يرد طالب حاجة، وقد وسع الناس بره، طعامه مبذول، وكفه مدرار، وصدره واسع، وخلقه سهل، ووجهه بسام.. وجاءته الكنوز من الذهب والفضة فأنفقها إنفاق المحسنين، ولم يدخر منها درهمًا ولا دينارًا، بل أنفقها بإيمان ويقين، في سبيل رب العالمين.

٤- التوازن النبوي بين الحزم واللين:

إن الرسول الكريم – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم – كان يغضب للحق، بالرغم مما حباه الله من الحلم والرأفة واللين.. إلا أنه الحلم والرأفة التي لا تتجاوز الحد، فإن أرغم

فإنه يغضب للحق ويحتد حتى يهدم الباطل المعتدي وينتهي بهذا الرد الحازم والفعل الجازم.

وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس وأكثرهم تؤدة وأناة، فلا ينتقم لنفسه من شيء إلا إذا انتهكت حرمات الله، وهو يتبع قول الحق جل في علاه: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ آل عمران ١٥٩

وقال في أهل الجنة الذين أخبر عنهم: "أهل الجنة ثلاثة – وذكر منهم – ورجل رحيم القلب لكل ذي قربى ومسلم" رواه مسلم

إنه اللين الذي لا يعرف الخور والختال، والحزم الذي به تكون الرجال، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما ضرب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خادمًا له ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئًا، يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي له حاجته" رواه النسائي والحاكم.

إن شخصية الرسول الإنسانية، هي التي اجتمعت فيها المبادئ الطيبة السوية، التي استنارت بإسناد الرسالة إليه، فصلوات الله وسلامه عليه، فهو أعظم إنسان عرفته البشرية، صاحب الحوض المورود، والمقام المحمود، المؤيد بجبريل، خير الخلق في طفولته، وأطهر المطهرين في شبابه، وأنجب البشرية في كهولته، وأزهد الناس في حياته، وأعدل القضاة في قضائه، وأشجع قائد في جهاده.. اختصه الله بكل خلق نجيب، وطهره من كل دنس وعيب، وحفظه من كل زلل، وأدبه فأحسن التأديب، فجعله على خلق عظيم، فلا يدانيه أحد في كماله وعظمته، وأمانته وزهده، وطهره وعفته، عليك أفضل السلام وأتم التسليم يا رسول الله.

محمد المثل الكامل

إن مهارات جذب القلوب، والتأثير في النفس بالكامل، نسميها في زماننا هذا (فن التعامل)، فبخلق راقٍ وإيجابية سلوكيات نستطيع التأثير في قلوب الناس بمهارات تجعلهم ينجذبون نحوك أنت بالذات، ويتأثرون بطريقة تعاملك معهم، وتوددك إليهم، وترحيبك بهم، واستماعك لهم تأثرًا كبيرًا؛ بشرط أن تصدق في مشاعرك، وحسن تعاملك، وأن تدرب نفسك عليها حتى تتقنها؛ فتعبر بها عن رقي طبيعتك، وجميل خصالك، وكياسة فطنتك، بالتفاعل والأنس والاحتفاء عند لقاء الأصدقاء أو الأعداء؛ فيشعر الجميع على حد سواء بأنه أحب الناس إليك، والمحظي منهم لديك، فالإسلام دين الأخلاق القويمة، والمعاملة الكريمة.

وقد كان القدوة الحسنة لمن أراد أن يتعلم، فهو المرجع الشامل والمثل الكامل في فن التعامل، فبسماته الأخلاقية، وتعاملاته الإنسانية، التي تنبع من شخصيته المحمدية، استطاع خير البرية أن يعامل كل من يلقاه بتواضع العظماء، وبشاشة الترحيب والاحتفاء، ودعوته بأحب الأسماء، على نحو ما جاء في سيرته النبوية الغراء؛ فيشعر كلُّ من يلقاه أنه أحبُّ الناس إليه، فيفتح له قلبه وعقله وأذنيه، ويبادله حبًّا بحب، وصفاء بصفاء.

عمرو بن العاص وإسلامه

ومن السيرة النبوية نضرب أمثلة عملية، منها ما ورد عن داهية[1] العرب في الفطنة والذكاء، والخبرة والمراس: عمرو بن العاص – رضي الله عنه – فقد أسلم على يد رسول الله بعد أن كان رأسًا في قومه، إذا لقي النبي في طريق؛ لقي البشاشة والبشر والمؤانسة، وإذا دخل مجلسه رأى السعادة والترحيب والاحتفاء، وإذا دعاه النبي دعاه بأحب الأسماء.

شعر عمرو بهذا التعامل الراقي، والاهتمام التام، والترحيب والتبسم عند اللقاء على الدوام، من قِبَلِ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأراد أن يقطع الشك باليقين، ويسأل الرسول الكريم سؤاله المهم؛ فأقبل عليه وجلس إليه، ثم قال:

---

[1] أدهى العرب، اشتهر منهم أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد ابن أبيه.

- يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟

فقال: عائشة.

قال عمرو: لا، من الرجال يا رسول الله؟ لست أسألك عن أهل بيتك.

فقال: أبوها.

قال عمرو: ثم مَنْ؟

قال: ثم ابن الخطاب.

قال: ثم مَنْ؟

فجعل النبي يعدد رجالًا ويقول: فلان ثم فلان، بحسب سبقهم إلى الإسلام، وتضحيتهم من أجله.

قال عمرو، فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم!

فانظر كيف استطاع خير البرية أن يملك قلب عمرو بمهارات أخلاقية، وسلوكيات عملية، ومعاملات إنسانية راقية ومثالية، وفي الوقت نفسه حافظ على حقِّ سابقيه إلى الإسلام، وأنزل الناس منازلهم، وهو – عليه الصلاة والسلام – الحريص على مشاعرهم، والساعي لأجلهم، والمعبر عن محبته لهم على الدوام.

عدي بن حاتم الطائي وإسلامه

وهذه قصة أخرى من سيرة الحبيب المحبوب، تبين كيف يؤدي فن التعامل إلى امتلاك القلوب وأسرها بأفضل أسلوب.

أفلا ترى صديقي القارئ أن قصة عدي بن حاتم الطائي، تعد نموذجًا من النماذج الحية، وهو ملك ابن ملك من قبيلة طيئ وديانته الركوسية، وهي ديانة نصرانية مشربة بشيء من المجوسية، وكان من أكثر الناس عداوة وكراهية لرسول رب البرية.

فلنَرَ معًا كيف تعامل معه الرسول الكريم، بمهارات أخلاقية عالية، ونصح سليم؟ وكيف حاوره حتى أسلم لله رب العالمين؟

لمَّا توسع الرسول بالفتوحات الجديدة، وبدأ الإسلام ينتشر في بقاع عديدة؛ أرسل الدعاة لدعوة القبائل إلى الإسلام، فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام جيشًا إلى قبيلة طيئ، وكان عدي في هذا الأوان قد هرب إلى من الحرب بسلام فلم يشهدها، واحتمى بالروم في الشام.

وصل جيش المسلمين إلى ديار طيئ – قبيلة عدي بن حاتم وفيهم أهله – واستطاع المسلمون أن يهزموهم هزيمة سريعة وسهلة، فلا ملك يقود، ولا جيش مرتب، ولا نظام. في الوقت الذي كان فيه المسلمون يحسنون إلى الناس، ويعطفون عليهم حتى في الحروب وأثناء القتال!

أسر المسلمون بعض قوم عدي، وكان من بينهم أخته، ومضوا بالأسرى إلى المدينة حيث الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فأخبروه بفرار عدي إلى الشام، فعجب الرسول من فراره وقال: كيف يفر من الدين القويم، ويترك قومه بلا نصير أو معين؟

لم يطب لعدي المقام في ديار الروم والشام؛ فاضطر للرجوع إلى ديار العرب، ثم لم يجد بُدًّا من الذهاب إلى المدينة للقاء النبي ومصالحته، أو التفاهم على شيء يرضيهما.

يقول عدي وهو يحكي قصة ذهابه إلى المدينة:

"ما رجلٌ من العرب كان أشدَّ كرهًا لرسول الله مني، وكنت على دين النصرانية، وكنت ملكًا في قومي، فلمَّا سمعت برسول الله كرهته كراهية شديدة؛ فخرجت حتى قدمت الروم على قيصر.

قال: فكرهت مكاني ذلك أشد من كراهيتي لخروجه، فقلت: والله لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذبًا لم يضرني، وإن كان صادقًا علمت.

فقدمت فأتيته، فلمَّا دخلت المدينة جعل الناس يقولون: هذا عدي بن حاتم، هذا عدي بن حاتم! فمشيت حتى أتيت فدخلت على رسول الله في المسجد؛ فقال لي: أعدي بن حاتم؟

قلت: عدي بن حاتم".

فرح النبي بمقدمه واحتفى به، مع أن عديًا كان محاربًا للمسلمين، وفارًّا من الحرب ومبغضًا للإسلام، ولاجئًا إلى النصرانية؛ ومع ذلك لقيه – صلى الله عليه وسلم – بالبشاشة والبشر، وأخذ بيده يسوقه معه إلى بيته!

عدي وهو يمشي بجانب النبي يرى أن الرأسين متساويان، فمحمد ملك على المدينة وما حولها، وعدي ملك على جبال طيئ وما حولها. ومحمد - عليه الصلاة والسلام – على دين سماوي وهو الإسلام، وعدي على دين سماوي وهو النصرانية. ومحمد عنده كتاب منزل من الله وهو القرآن، وعدي عنده كتاب منزل وهو الإنجيل. وكان عدي يشعر أن لا فارق بينهما إلا القوة والجيش.

وفي أثناء الطريق وقعت ثلاثة مواقف:

بينما هما يمشيان، إذا بامرأة قد وقفت في وسط الطريق فجعلت تصيح: يا رسول الله، لي إليك حاجة! فانتزع النبي يده من عدي، ومضى إليها وجعل يستمع إلى حاجتها. وعدي بن حاتم الذي قد عرف الملوك والوزراء، جعل ينظر إلى هذا المشهد ويقارن تعامل النبي مع الناس، وتعامل من رآهم من قبلُ من الملوك والرؤساء؛ فتأمل طويلًا ثم قال: "والله ما هذه بأخلاق الملوك! هذه أخلاق أنبياء، وانتهت المرأة من حاجتها؛ فعاد النبي إلى عدي ومضيا يمشيان، فينما هما كذلك إذا برجل يقبل على النبي، فماذا قال الرجل؟

قال: يا رسول الله، أشكو إليك الفاقة والفقر.

ما يكاد هذا الرجل يجد طعامًا يسد به جوع أولاده، ومَنْ حوله من المسلمين يعيشون على الكفاف، ليس عندهم ما يساعدونه به..

قال الرجل هذه الكلمات وعدي يسمع؛ فأجابه النبي بكلمات ومضى، فلمَّا مشيا أقبل رجلٌ آخرُ، وقال: يا رسول الله أشكو إليك قطع الطريق، يقصد أننا لا نأمن أن نخرج عن حدود المدينة لكثرة ما يعترضنا من كفار ولصوص!

فأجابه النبي بكلمات ومضى.

بدأ عدي يقلب الأمر في نفسه وهو في عز وشرف من قومه، وليس له أعداء يتربصون به، فلماذا يدخل في هذا الدين الذي أهله في ضعف ومسكنة، وفقر وحاجة؟

وصل عدي مع الحبيب إلى بيته؛ فدخلا فإذا وسادة واحدة، فدفعها النبي إلى عدي إكرامًا له، وقال: خذ هذه فاجلس عليها، فدفعها عدي إليه، وقال: بل اجلس أنت عليها.

فقال له النبي: بل أنت.

حتى استقرت عند عدي فجلس عليها.

عندها بدأ النبي يحطم الحواجز بين عدي والإسلام.

يا عدي، أسلم تسلم! أسلم تسلم!

قال عدي: إني على دين.

فقال النبي: أنا أعلم بدينك منك.

قال: أنت أعلم بديني مني!

قال: نعم، ألست من الركوسية؟

فقال عدي: بلى.

فمن مهارة النبي عليه السلام في الإقناع، أنه لم يقل ألست نصرانيًّا، إنما تجاوز تلك المعلومة إلى معلومة أخرى أدق منها، فأخبره بمذهبه في النصرانية تحديدًا؛ وعندها أدرك عدي أن النبي يعلم كلَّ شيء عن دينه!

فقال النبي: فإنك إن غزوت مع قومك تأكل فيهم المرباع؟

قال عدي: نعم!

فقال النبي: فإن هذا لا يحل لك في دينك.

فتضعضع لها عدي وقال: نعم!

فقال النبي: أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام، أنك تقول: إنما اتبعه ضَعَفَةُ الناس ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العرب.. يا عدي، أتعرف الحيرة؟

قال: لم أرها، وقد سمعت بها.

قال النبي: فوالذي نفسي بيده، ليتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد! أي: سيقوى الإسلام إلى درجة أن المرأة المسلمة الحاجة تخرج من الحيرة حتى تصل إلى مكة ليس معها إلا محرم من غير أحد يحميها، فتمر على مئات القبائل فلا يجرؤ أحد أن يعتدي عليها، أو يسلبها مالها؛ لأن المسلمين صار لهم قوة وهيبة، لدرجة أن أحدًا لا يجرؤ على التعرض لمسلم خوفًا من انتصار المسلمين له!

فلمَّا سمع عدي ذلك؛ جعل يتصور المنظر في ذهنه: امرأة خرجت من العراق حتى تصل إلى مكة، معنى ذلك أنها ستمر بشمال الجزيرة، أي: ستمر بجبال طيئ، ديار قومه؛ فتعجب عدي وقال في نفسه: فأين عنها ذُعَار – جبناء – طيئ الذين سعروا البلاد؟

ثم قال النبي: "ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز".

قال: كنوز ابن هرمز؟

قال: "نعم، كسرى بن هرمز، ولتنفقن أمواله في سبيل الله".

قال: "ولئن طالت بك حياة، لترينَّ الرجلَ يخرج بملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه؛ فلا يجد أحدًا يقبله منه!"

يعني من كثرة المال، يخرج الغني يطوف بصدقته؛ فلا يجد فقيرًا يعطيه إياها!

ثم بدأ يعظ عديًا، ويذكره بالآخرة، فقال: "وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم."

سكت عدي متفكرًا؛ ففاجأه قائلًا: "يا عدي، فما يضرك أن تقول لا إله إلا الله؟ وتعلم من إله أعظم من الله؟"

قال عدي: "فإني حنيف مسلم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله".

قال عدي بن حاتم: "فهذه الظعينة تخرج من الحيرة تطوف بالبيت في غير جوار، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى؛ فوالذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله قد قالها"

هذه هي شخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – خير الأنام، وكيف جذبت أعداء الإسلام إلى الدين القويم بالحب الراقي، والمعاملة الطيبة، والنصح المبين. وكيف آمنوا بالله، وملأ الإيمان قلوبهم، وأصبح رسول الله أحبَّ إليهم من نفوسهم.

إنسانيات الرسول وعطفه على الغني والفقير على حد سواء

هيا بنا القارئ النجيب، نتابع من قريب كيف كان الحبيب – خاتم الأنبياء – يعطف على الغني والفقير على حد سواء؟

فيضرب لنا المثل الكامل في فن التعامل.

قصة زاهر بن حزام، رضي الله عنه:

وها هي قصته ماثلة للعيان، يرويها أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال:

"كان رجل من أهل البادية، اسمه زاهر بن حرام، وكان ربما جاء المدينة في حاجة؛ فيهدي للنبي من البادية شيئًا من أقط (الجبن القريش) أو سمن، فيجهزه رسول الله إذا أراد أن يخرج إلى أهله بشيء من تمر ونحوه..

وكان النبي يحبه، وكان يقول: "إن زاهرًا باديتنا، ونحن حاضروه".

وكان زاهر دميمًا.

خرج زاهر – رضي الله عنه – فأتى رسول الله؛ فلم يجده..

وكان معه متاع فذهب به إلى السوق، فلمَّا علم به النبي مضى إلى السوق يبحث عنه..

فأتاه فإذا هو يبيع متاعه، والعرق يتصبب منه، وثيابه ثياب أهل البادية بشكلها ورائحتها..

فاحتضنه من ورائه، وزاهر لا يبصره، ولا يدري من أمسكه..

ففزع زاهر، وقال: أرسلني، من هذا؟

فسكت النبي عليه الصلاة والسلام..

فحاول زاهر أن يتخلص من القبضة..

وجعل يلتفت وراءه؛ فرأى النبي، فاطمأنت نفسه، وسكن فزعه، وصار يلصق ظهره بصدر النبي حين عرفه..

فجعل النبي يمازح زاهرًا، ويصيح بالناس يقول: من يشتري العبد؟ من يشتري العبد؟

فنظر زاهر في حاله.. فإذا هو فقير كسير.. لا مال.. ولا جمال..

فقال: إذًا والله تجدني كاسدًا يا رسول الله!

فقال: لكنك عند الله لست بكاسد، أنت عند الله غالٍ.

فلا عجب أن تتعلق قلوب الفقراء بخاتم الأنبياء، وهو يملكهم بهذا الخلق الكريم.. ولنتأمل الحكمة من أقوال سيد المرسلين وأفعاله عليه الصلاة والسلام في تعامله مع زاهر بن حرام وغيره، لا فرق بين إنسان وإنسان على أساس غناه أو فقره؛ فقد فاض عليه باللطف وحسن المعاشرة، والتبسم والمزاح، والحب والحنان، ورفع من قيمته وأقام له التقدير الإنساني والاحترام؛ اتساقًا مع قوله عليه الصلاة والسلام: "رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره". هذا جانب من حسن تعامله – عليه السلام – مع الرجال، فماذا كان أسلوب تعامل خاتم الأنبياء مع النساء.

تعامل الرسول مع النساء:

لقد كرَّم الرسول المرأة في صورها المتعددة – فتاة كانت أو سيدة – فأحسن إليهن، وأوصى بهن، ووصفهن بالقوارير، وهو وصف رقيق يثير مشاعر الرحمة والعطف والإحسان، وقد ورد العديد من أحاديث خير الأنام - عليه الصلاة وأتم التسليم – التي تحث على رقي التعامل مع النساء بوجه عام.

تكريم الرسول للنساء:

عن المقدام بن معدي كرب – رضي الله عنه – أن رسول الله قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله يوصيكم بالنساء خيرًا، إن الله يوصيكم بالنساء خيرًا، فإنهن أمهاتكم وبناتكم وخالاتكم. إن الرجل من أهل الكتاب يتزوج المرأة وما تعلق* يداها الخيط، فما يرغب واحد منهما عن صاحبه حتى يموتا هرمًا" أخرجه الطبراني

والمراد بهذا الحديث أن الرسول الكريم يحث أصحابه، ويوصيهم خيرًا بالنساء، والصبر عليهن، مدللًا بما يفعله أهل الكتاب بنسائهم.

* كناية عن صغر سنها، وقلة رفقها؛ فيصبر عليها زوجها.

تكريم الرسول للابنة:

في الحديث الشريف أنه قال: "من كانت له ثلاثُ بنات فأدَّبَهُنَّ وأحسن تأديبَهُنَّ كنَّ له عتقًا من النار، فقال قائل يا رسول الله: واثنتان؟ قال: واثنتان، قالوا: يا رسول الله، وواحدة؟ قال: وواحدة".

تكريم الرسول للأخت:

أما عن تكريمها أختًا؛ فقد حثَّ الإسلام على الإحسان إلى النساء بالعطف عليهن، والرحمة بهن؛ لأنهن شقائق الرجال، فأوجب صلتها، وإعطاءها حقَّها من الميراث تامًّا دون تتبيب (خسران)، لقوله عليه الصلاة والسلام: "الضِّرار في الوصية من الكبائر" وفي رواية: "الحَيْف** في الوصية من الكبائر".

تكريم الرسول للزوجة:

وأما عن تكريمه للزوجة؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي" رواه الترمذي وابن ماجة

وقال مبينًا ما للزوجة الصالحة عند زوجها، فقال: "ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرًا له من زوجة صالحة، إذا نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله".

فإذا أدت المرأة حق زوجها؛ فقد أدت حق ربها، كما بين ذلك رسول الله: "لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها"

وحق زوجها طاعتها له فيما يأمر من معروف امتثالًا لبشرى النبي إذ يقول: "إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها؛ قيل لها يوم القيامة: ادخلي من أيِّ أبواب الجنة الثمانية شئت".

وصدق رسول الله

أما عن تكريم الأم:

** الحيف هو الميل في الحكم، والجنوح إلى أحد الجانبين، كإيثار الذكر على الأنثى.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ الإسراء ٢٣-٢٤

ففضل الأم كبير على أبنائها، إذ يكرمهم الله من أجلها، مصداقًا لقوله عليه الصلاة والسلام: "إذا ماتت أم ابن آدم أمر الله مناديًا ينادي عليه من السماء: يا بن آدم، ماتت التي كنا نكرمك لأجلها؛ فاعمل صالحًا نكرمك لأجله"

وقد كان آخر كلامه، كلمات من نور نقتدي بها ونتعلم، وهو يوصي بالنساء خيرًا فيقول: "الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم، الله الله في النساء" رواه الطبراني في الجامع الصغير.

هذا هو الرسول وخلقه الكريم، ونموذجه العظيم في الرفق بالنساء ووصفهن بالقوارير، والمحافظة عليهن، وتقدير دورهنَّ العظيم كبنات وأخوات وخالات وعمات وأمهات، منهنَّ من حملنَ في الإسلام مشاعل النور والإيمان، أمثال: عائشة، وسمية، وخولة، ونسيبة، وأسماء، وصفية، والخنساء، رضي الله عنهن أجمعين.. آمين يا رب العالمين..

فن التعامل مع المخالفين:

كان – عليه الصلاة والسلام – يعامل الكفار بالعدل والرحمة، ولا يعاملهم بمعاملتهم، ويستميت في سبيل دعوته وإصلاحهم، ويتحمل أذاهم ويتغاضى عن إساءاتهم، كيف لا وقد قال الله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء ١٠٧**

ونتأمل حال اليهود وهم يذمونه ويبادئونه بالعداوة؛ ومع ذلك يرفق بهم.

عن عائشة – رضي الله عنها – أن اليهود مروا ببيت النبي فقالوا: السام عليكم (أي: الموت عليكم) فقال: "وعليكم". فلم تصبر عائشة لمَّا سمعتهم، فقالت: السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم؛ فقال: "مهلًا يا عائشة، عليكِ بالرفق، وإياكِ والعنف

والفحش" فقالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ فقال: "أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيَّ" أخرجه الترمذي واللفظ له، والبخاري ومسلم باختلاف يسير.

صدقت يا حبيب الله، فما الداعي لمقابلة السباب بالسباب؟ أوليس الله قد أوصانا في الكتاب: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ**﴾ البقرة: ٨٣

١- قصة عتبة بن ربيعة مع الرسول:

ولْنَرَ نموذجًا آخرَ من تعامل الحبيب – عليه الصلاة والسلام – مع المخالفين لدين الإسلام في شخصية عتبة بن ربيعة؛ لنرى في هذا النموذج المثالَ الكريمَ لتعامل الرسول بخلقه العظيم، وعفوه الرحيم مع عتبة بن ربيعة (أبو الوليد) وقد أعدته قريش ليكلم الرسول ليعدل عن دعوته التي فرقت جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعابت دينهم (بحسب قولهم) فليكلمه عندما يذهب إليه، ولينظر بماذا سيرد عليه؟

فتوجه عتبة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ودخل عليه وهو جالس بكل سكينة، فلمَّا وقف عتبة بين يديه قال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله تأدبًا مع أبيه عبد الله، فقال: أأنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت تأدبًا مع جده عبد المطلب.

فقال عتبة: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك؛ فقد عبدوا الآلهة التي عبتها، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك.

وقبل أن يجيب النبي بكلمة، ثار عتبة وقال: إنا والله ما رأينا سَخْلَة* قط أشأم على قومك منك! فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا.. والله ما ننتظر إلا مثل صحية الحُبْلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى!

كان عتبة متغيرًا غاضبًا، والنبي ساكت يستمع بكل أدب، ثم بدأ عتبة يقدم إغراءات تلو إغراءات ليتخلى النبي – عليه الصلاة والسلام – عن الدعوة.

* الذّكر وَالْأُنْثَى من ولد الضَّأْن والمعز سَاعَة يُولد (ج) سخل وسخال وسخلان.

فقال: أيها الرجل، إن كنت جئت بالذي جئت به من أجل المال جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلًا، وإن كنت إنما بك حب الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسًا ما بقيت، وإن كان إنما بك البهو – الفخر – والرغبة في النساء؛ فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك؛ طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه.

ومضى عتبة يتكلم بهذا الأسلوب السيئ مع رسول الله، ويعرض عليه عروضًا ويغريه، والنبي ينصت إليه بكل هدوء، إلى أن انتهت العروض: (ملك، مال، نساء، علاج من جنون مزعوم).

سكت عتبة وهدأ ينتظر جوابًا؛ فرفع النبي بصره إليه، وقال بكل هدوء: "أفرغت يا أبا الوليد؟"

لم يستغرب عتبة هذا الأدب من الصادق الأمين، بل قال باختصار: نعم.

فقال عليه الصلاة والسلام: "فاسمع مني".

قال: أفعل.

فقال صلى الله عليه وسلم:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾ فصلت:١-٤

ومضى النبي يتلو الآيات، وعتبة يستمع، وفجأة جلس عتبة على الأرض ثم اهتز جسمه فألقى يديه خلف ظهره، واتكأ عليهما وهو يستمع والنبي يتلو الآيات، حتى بلغ قوله تعالى: **﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾** فصلت: ١٣

فانتفض عتبة لمَّا سمع التهديد بالعذاب، وقفز ووضع يديه على فم النبي – صلى الله عليه وسلم – ليوقف القراءة؛ فاستمر عليه الصلاة والسلام يتلو الآيات حتى انتهى إلى الآية التي فيها سجدة التلاوة بفصلت رقم (٣٨) فسجد ثم رفع رأسه من سجوده، ونظر إلى عتبة وقال: "سمعت يا أبا الوليد؟"

قال: نعم

قال: "فأنت وذاك"

فقام عتبة يمشي إلى أصحابه وهم ينتظرونه متشوقين، فلمَّا أقبل عليهم قال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلمَّا جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

فقال: ورائي أني والله سمعت قولًا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه!

قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

صحيح أن عتبة لم يدخل في الإسلام، ولكنَّ نفسه مالت إلى الدين.

فلنتأمل معًا كيف أثر رسول الله في عتبة وإقناعه، بخلقه الكريم، ومهارة عرضه، وحسن استماعه إليه، والحكمة في الرد عليه بهدوء وصفاء نية، مع أنه من أشد أعداء الرسالة المحمدية.

٢- قصة حصين بن المنذر الخزاعي:

وفي رواية أخرى أن قريشًا اجتمعت، وانتدبت حصين بن المنذر الخزاعي، وهو أبو الصحابي الجليل عمران بن حصين؛ لنقاش النبي ورده عن دعوته، فدخل أبو عمران على النبي وحوله أصحابه فيردد عليه ما تردده قريش دومًا: فرقت جماعتنا، شتت أمرنا...، والنبي ينصت بلطف حتى إذا انتهى قال له بكل أدب: "أفرغت يا أبا عمران؟"

قال: نعم.

قال الرسول عليه السلام: "فأجبني عمَّا أسألك عنه".

قال: أسمع.

فقال عليه الصلاة والسلام: "يا أبا عمران، كم إلهًا تعبد اليوم؟"

قال: سبعة، ستة في الأرض، وواحد في السماء.

قال: فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟

قال: الذي في السماء.

فقال النبي بكب لطف: يا حصين، أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك.

فما كان من حصين إلا أن أسلم في مكانه فورًا، ثم قال: يا رسول الله، علمني الكلمتين اللتين وعدتني بهما، فقال: "قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شر نفسي". رواه الترمذي وحسَّنَه، والبزار والطبراني، وذكره ابن القيم في الوابل الصيب.

ما أروع هذا التعامل الراقي، وشدة تأثيره الباقي في نفوس البشر عند مخالطتهم، والاستماع إليهم قبل مخاطبتهم.. تلك والله هي المتعة الحقيقية في الحياة التي يرشدنا إليها رسول الله؛ ليصبح تعبدك لله ممارسة عملية وأسلوب حياة، فبالخلق العظيم استطاع النبي الكريم أن يألف ويؤلف، ويجذب إلى الدين القويم كلَّ من أسرف على نفسه. يقول الحقُّ في محكم التنزيل: **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾** آل عمران: ١٥٩

العفو من سمات الرسول:

العفو هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب، وقد ضرب لنا حبيب الأحباب المثل الأعلى في هذا الباب، بصفحه الجميل عن محاربيه ومعانديه، ومن له عليهم قصاص قديم، وذلك من تجليات رحمته عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم.

فالصفح الجميل من شيم العظماء، وقد أغدقه خاتم الأنبياء على أولئك المجرمين الكبار، وهو مظهر من مظاهر رحمته، وجوهرة بالغة الإشعاع في شخصيته، وقد أوصاه القرآن الكريم فحفظ وصيته، وعمل بها **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الأعراف ١٩٩**

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة ١٣

وقال الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: "أوصاني ربي بسبع خصال أوصيكم بها: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرًا، ونطقي ذكرًا، ونظري عبرًا" مشكاة المصابيح للتبريزي وقال: رواه رزين.

وهذا ما حدث في عفوه عن مشركي مكة، وعفوه عن أهل الكتاب، وعفوه عن الأعراب الغلاظ الأجلاف، وهو ما أضاف إلى شخصيته بعدًا إنسانيًّا متميزًا؛ رحم به الضعيف، وأمن به من خاف، وقد وصفه الخالق العظيم في القرآن الكريم: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** التوبة ١٢٨

نماذج من عفوه:

أولًا: عفوه عن مشركي مكة عام الفتح (رمضان ٨ هـ/ يناير ٦٣٠ م)

وهو مثال لعفو النبي عن المشركين، رغم ما فعلوه بسيد المرسلين، فتأمل قارئي الكريم كيف أنهم آذوه، وأخرجوه من أحب بقاع الأرض إليه – مكة المكرمة – التي خاطبها وهو مُكْرَهٌ على الرحيل عنها، فقال عليه الصلاة والسلام: "والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله إلى نفسي، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت".

أخرجوه هو ومن ناصروه وأمنوا برسالته ودعوته من بيوتهم، إلى الصحراء الجرداء التي لا زرع فيها ولا ماء، رافعين في وجوههم لواء الكراهية والعداء، بعد أن كانوا قد أعلنوا عليهم المقاطعة الشنعاء، وعلقوا بنودها في صحيفتهم على جدار الكعبة الغراء، وكانت تقضي بعدم التعامل معهم بيعًا أو شراءً، وعدم التزوج من بناتهم، أو تزويج بناتهم لهم.

وقد دامت هذه المقاطعة ثلاث سنوات وهم في حصار، بحيث اضطروا إلى أكل العشب والجذور وأوراق الأشجار؛ فهلك من الجوع الأطفال الصغار، والشيوخ الكبار، دون أن يؤثر في مشاعرهم هذا الهلاك، ودون أن يخففوا من وطأة مقاطعتهم آنذاك، ولم يكتفوا بهذا الإيذاء الذي كان – رغم ما أدى إليه من أهوال – بل اضطروهم إلى ترك بيوتهم

وأوطانهم، والهجرة إلى غير مكان...

ولم يتركوهم على هذا الحال في حالهم، بل راحوا يدبرون لهم الدسائس المختلفة؛ بغية سلبهم طعم الراحة والاطمئنان، ويعدون العدة لحربهم في الغزوات على نحو ما كان – من بدر وأحد – حرب ضروس ضد الإسلام، حرموهم خلالها من أبسط حقوقهم في الراحة والأمان.

وتمضي الأيام إلى أن آن الأوان فأنعم الرحمن الرحيم على نبي الإسلام بفتح مكة، فدخلها الرسول الكريم على رأس جيش عظيم.

فكيف كانت معاملة خاتم الأنبياء والمرسلين لأهل مكة بعد كل هذا التاريخ المملوء بالعداوة والبغضاء؟

قال رسول الله يوم فتح مكة: "يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟"

فأجابه سهل بن عمرو قائلًا: نظن خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم.

فقال الرسول قولته الصفحاء: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

ولو كان محمد من ملوك الدنيا وحكامها المشاهدين لسالت من أهل مكة الدماء، جزاء ما صنعوه وارتكبوه في حق الإسلام والمسلمين، ولكنه الرسول الكريم المبعوث رحمة للعالمين، قابل صنيعهم بالعفو والصفح المبين. فما كان من أكثرهم إلا أن دخلوا أفواجًا في دين الله العظيم.

ثانيًا: عفوه عن أهل الكتاب:

ولقد أسبغ سيدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عفوه على أتباع الأديان الأخرى جميعًا (يهود ونصارى ووثنيين وغيرهم) فلم يقصر – في حينه – إحسانه على المؤمنين بدينه من أتباعه، ومثال ذلك عفوه عن قبيلة بني قينقاع اليهودية، الذين ناصبوه العداوة والكراهية، وقد كان في استطاعته أن يفنيهم في معركته الحربية معهم (١٥ شوال سنة ٢ من الهجرة/ ٩ أبريل ٦٢٤ ميلادية) إلا أنه غفر لهم وصفح عنهم، رغم ما صدر منهم من جريمة نكراء ضد المسلمين والإسلام؛ فقد تواطئوا فيها على كشف عورة سيدة مسلمة في مكان عام، وقتلوا رجلًا مسلمًا دافع عن عرض هذه السيدة، وحاول ردَّ العدوان.

عفوه عن قبيلة بني النضير اليهودية:

ومن أمثلة صفح خير البرية للذين سبق لهم أن خططوا لعملية اغتيال فاشلة للنبي عليه السلام، فكان باستطاعته أن ينفذ فيهم حكم الإعدام بعد هزيمتهم في معركتهم الحربية ضد المسلمين والإسلام (في ربيع الأول سنة ٤ هـ / أغسطس ٦٢٥م) لكنه عليه الصلاة والسلام منحهم العفو العام، مقابل أن يرحلوا خارج حدود الدولة بسلام.

ثالثًا: عفوه عن الضعفاء أثناء الحرب:

إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء، وحذرهم أن يهدموا البيوت، أو يسلبوا التجار، أو أن يقطعوا الأشجار المثمرة، وأمرهم ألا يجردوا السيوف إلا في حالة الضرورة القاهرة، بل رأيناه يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحًا ماديًّا ويقول لهم: "إن نفسًا واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء".

ولقد كان محمد خير الأنبياء، ينبه في كل الحروب والفتوحات على هذه التعليمات الإنسانية، باعتباره القائد الأعلى للقوات الإسلامية.

رابعًا: عفوه عن الأعراب الغلاظ:

عن عكرمة عن أبي هريرة، أن أعرابيًّا جاء إلى النبي يستعينه في شيء، قال عكرمة: أراه قال: في ذم؛ فأعطاه رسول الله شيئًا ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت؛ فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه، فأشار النبي أن كفوا، فلما قام النبي وبلغ منزله، دعا الأعرابي إلى البيت فقال له: إنك قد جئتنا فسألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت فزاده رسول الله شيئًا فقال: أحسنت إليك؟ فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا.

فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – إنك كنت جئتنا فأعطيناك فقلت ما قلت، وفي نفوس أصحابي عليك من ذلك شيء، فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم، قال: نعم.

قال فحدثني الحكم أن عكرمة قال، قال أبو هريرة: فلمَّا جاء الأعرابي قال رسول الله: إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال، وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه

قد رضي، أكذلك؟ قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا.

قال أبو هريرة فقال النبي: إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورًا، فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأعلم بها، فتوجه إليها صاحب الناقة فأخذ لها من قتام – نبات – الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها واستوى عليها، وإني لو أطعتكم حيث قال لدخل النار.

هذا الموقف الحليم من الرسول الكريم، يمنحنا القدوة في فن التعامل، باعتباره المثل الكامل، والنموذج الشامل ذا النهج الإسلامي العظيم؛ فاشتمل الموقف على حلمه وكرمه وحسن تصرفه ولطفه ورفقه، إلى جانب عفوه وتسامحه وصفحه.. عليك الصلاة وأتم التسليم، يا صاحب الخلق العظيم.

المنهج النبوي مع المخطئين

إن العالم كله – ولن نقول المسلمين – يحتاج إلى دراسة المنهج النبوي في علاج المشكلات والأزمات، فهو منهج فريد ومتميز، أو حب به العلي القدير إلى الرسول الكريم. ومن هنا، فإن هذا المنهج يعتمد كل الاعتماد على الأخلاق القويمة، وفي مقدمتها الرحمة والعدل.. فكيف كان ينظر الرسول إلى الأخطاء التي كانت تقع من البشر؟

كان ينظر بنفس هادئة تمامًا، بل أحيانًا بالابتسام، وليس لشيء إلا لأمرين: أما الأول فهو الرحمة الفطرية التي جبل عليها الحبيب، والتي جعلته ينظر إلى المخطئ على أنه بشر واقع في أزمة ويحتاج إلى من يأخذ بيده. والثاني، فهو قناعته أن الخطأ من الإنسان أمر طبيعي من طبيعة البشر التي صرح بها الحبيب عندما قال: "كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون" صحيح، السنن للترمذي وابن ماجة.

ونقول ببساطة إن الرسول عليه الصلاة والسلام، كان يملك ببراعة القدرة على جعل المخطئ يضع الخطأ وراء ظهره ويبدأ من جديد.

إنها روح التفاؤل والتسامح والتواضع، روح تقول لك في حب وحنان وعطف: اترك الخطأ وراء ظهرك وابتسم، فأنت في مدرسة رسول الله.

موقف الرسول مع حاطب بن أبي بلتعة اللخمي:

ولنسرد موقفًا عجيبًا يثير الدهشة، وكيف عالجه الحبيب رسول الرحمة بسعة صدره، وحلمه، ورأفته، وروعته. عندما أفشى حاطب بن أبي بلتعة سرًّا من الأسرار العسكرية عن الدولة الإسلامية، من خلال رسالته لمشركي مكة يخبرهم فيها أن خير البرية الأمين – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم – قد جهز جيشًا لفتحها المبين.

تلك الرسالة كان من الممكن أن يكون لإفشاء هذا الخبر بها، أشد الأثر على أمن الدولة الإسلامية واستقرارها.

إن موقف حاطب بن أبي بلتعة الذي شهد بدرًا والحديبية، وشهد له خير الأنام بالإيمان، هو الذي أعد تلك الرسالة إلى المشركين، وهو بهذا الفعل قمين – جدير – أن يعرض جيش المسلمين للخطر المحدق المبين.

فكيف يكون الحكم المناسب في هذه القضية، في أي دولة من دول الكرة الأرضية،

بحسب القوانين العسكرية؟

إن كشف أسرار الدولة للأعداء يُعَدُّ خيانة عظمى بلا جدال ولا مراء، وعقوبة القتل والإعدام هي أنسب جزاء، وهذا ما اقترحه بعض صحابة خير الأنام في هذه الأثناء.

لكن ماذا فعل الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم؟

إنه بعد أن أمسك بالخطاب الخطير، وعلم بما فيه من إفشاء لأسرار عسكرية، أرسل إلى حاطب وسأله بهدوء وروية: يا حاطب، ما هذا؟

فال حاطب: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش – أي: كنت حليفًا معهم ولم أكن منهم – وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام؛ فقال رسول الله: أما إنه قد صدقكم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله: إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" رواه البخاري

إن المبرر الذي ذكره حاطب للرسول قد لا يقبله كثيرون، وها هو عمر بن الخطاب – الذي نعلم عن ورعه وفطنته الكثير – لم يقبل بهذا التبرير، ورأى أن يُقتل بهذا الجرم الخطير، فكيف يسوغ حماية أهله على حساب جيش كامل كبير من المسلمين؟ ثم يعصي أمرًا مباشرًا للرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم!

ومع كل هذا ما كان من المبعوث رحمة للعالمين إلا أن قبل منه عذره، وشمله بعفوه، بل رفع من قدره وعظم مكانته باعتباره قد شهد بدرًا.

إن العدل شيء والرحمة شيء آخر، فالعدل يقتضي أن يعاقب حاطب بعقاب رادع على هذه الجناية، ولكن الرحمة آية من آيات إعمال العقل بروية وإنصاف، والنظر إلى تاريخ الجاني وسوابقه المقضية، وأعماله السالفات، وهل هو من أهل الخير أم من أهل الشر؟ وما هي الملابسات والخلفيات؟

فالرحمة تقتضي عدم الانسياق وراء عاطفة العقاب، وتلتزم بالبحث عن وسيلة وعلاج، يقول رب الأرباب في محكم الكتاب: **﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ**

بَصِيرًا﴾ فاطر ٤٥

ويقول عز وجل: **﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾** الشورى ٣٠

فمن العدل أن يصيب الله الناس بعقوبته، ويعفو عن كثير برحمته.. وخير الأنام – عليه الصلاة والسلام – يطبق أخلاق القرآن، فيتخذ من منهج الرحمة طريقًا دون تفريط ولا تضييع، بعفو كريم. وصفته عائشة – رضي الله عنها – عندما سئلت عن خلق خير الأنام، قالت: كان خلقه القرآن.

وقد مدحه الله في قوله الحكيم: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** القلم ٤

كيف كان الرسول يقيم الحدود مع المخطئ؟

إن تطبيق الحدود التي تبدو قاسية في أحيان، فيها رحمة بالمجتمع والإنسان؛ لأنها تمنع الناس من ارتكاب الجرائم، وتحمي المجتمع من كل فعل شائن حماية رادعة لا تجور، وتكفر الذنب عن فاعله بطريقة قالعة من الجذور، فهي أوامر من رب العالمين، واجبة التطبيق بشكل أمين، والله أعلم بما يصلح عباده أجمعين. ورسوله الكريم مطبق لقوانين الشريعة الإسلامية على المسلمين بشكل بات، دون تمييز أو تفريط أو إفراط، ولقد غضب عندما حاول بعض الصحابة من القوم أن يتوسط لامرأة ذات نسب من قبيلة بني مخزوم؛ حتى لا تقطع يدها في جريمة سرقة أمرها معلوم!

وأصرَّ الرسول على تطبيق الحد، وخطب خطبة بليغة كتوضيح ورد، أوضح فيها بطريقة أمينة منهجه العادل في معالجة الجريمة: "إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها".

ثم الجانب الأروع والأجمل، أن الرسول الأكمل – صلى الله عليه وسلم – لم يكن متشوقًا إلى إقامة الحدود إلا في أضيق الحدود، ولا متمنيًا رجم إنسان أو قتله أو قطع يده، بل كان – عليه الصلاة والسلام – يبحث عن مخرج للمذنب، فالشك يُفسَّر لصالح المتهم أيًا ما كان. فمن سنته ألا يقيم حدًّا أبدًا إذا كانت هناك شبهة قليلة، أو أي احتمال لعدم اكتمال أركان الجريمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ادرءوا الحدود عن

المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام لأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة" رواه الترمذي والحاكم وهو صحيح الإسناد.

وكان الرسول الكريم يحض صاحب الحق المبين على العفو والمسامحة، لا على رفع الأمر إلى الحاكم والمناطحة؛ وذلك لتقليل الأحكام واجبة النفاذ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب" أبو داود والنسائي وصحيح الجامع.

١- موقف الرسول مع صفوان بن أمية:

وهذا المعنى واضح للعِيان، في موقف صفوان بن أمية عندما رفع أمر رجل سرقه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأمر الرسول بقطع يد الرجل، فقال صفوان: يا رسول الله، لم أرد هذا، ردائي عليه صدقة؛ فقال رسول الله: "هذا قبل أن تأتيني به" النسائي وابن ماجة.

إنها دعوة صريحة من رسول الإسلام إلى صفوان بن أمية وإلى عموم المسلمين في كل مكان، أن يجتهدوا في تعافي الحدود فيما بينهم قدر الإمكان، وألا يرفعوا الجرائم إلى القضاة أو الحكام إلا في آخر المطاف.

٢- موقف الرسول من ماعز بن مالك الأسلمي:

وقد حدث في قصة ماعز بن مالك الأسلمي ما يؤيد ذلك بلا خلاف؛ لأن رجلًا من الصحابة اسمه هَزَّال هو الذي دفع ماعزًا إلى الاعتراف بجريمة الزنا، فلمَّا أصرَّ ماعز على الاعتراف بالجريمة؛ رجمه رسول الله لأن ماعزًا كان محصنًا، وهي عقوبة سليمة. ولكن رسول الله لم يدع الأمر يمر دون نصح ووصية لهَزَّال وللأمة الإسلامية من بعده قائلًا: "والله يا هَزَّال لو كنت سترته بثوبك كان خيرًا مما صنعت به" رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

فإن ماعزًا جاء إلى رسول الله معترفًا ليقام عليه الحد، ولم يُكرهه أحد، لقد جاء تائبًا مقرًا بذنبه الذي ارتكب، يريد أن يتخلص منه في الدنيا الغدارة، قبل حساب الآخرة والحدود كفارة.

فقد سأله الرسول الرحيم: "لعلك قبَّلت أو غمزت أو نظرت"، قال: لا، بل زنيت.

فقد أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يجد له مخرجًا يخفف من ذنبه الذي كان،

ويخرجه من نطاق إقامة الحد؛ لكنه أصرَّ بتأكيد وجد.

فهل يمكن أن تصل رحمة حاكم بمحكوم، أو عطف مسئول بسائل، أو رقة قاضٍ عادل إلى هذا الحد الحليم، الذي كان عليه رسولنا الكريم؟

ثم إن هناك بعدًا آخرَ في غاية الأهمية دفع خير البرية إلى نهج إقامة الحد على المعترف بالذنب اعترافًا بطريقة جازمة قطعية؛ لأنه لا يحب أن تشيع الفاحشة بين أفراد الأمة الإسلامية؛ فأقام الحد على (ماعز) كما قضت الشريعة السماوية، ورجم بالحجارة رجمات كفارة رادعة.

ولم تنته قصة ماعز عند هذا الحد، بل بقيت نقطتان لهما علاقة وثيقة بموضوعنا:

أما النقطة الأولي: فهي خطبة الرسول في المدينة المنورة ليلًا في اليوم الذي رُجم فيه ماعز، وقد نبه الناس فيها إلى أن الموقف المأساوي الذي تعرض له ماعز عندما رُجم بالحجارة، يجب ألا يصرف الناس أو يلهيهم عن الجريمة التي لا تموت؛ فلقد أُعتدي على حرمة المرأة، وعلى حرمة بيت أبيها، وعلى حرمة زوجها وأخيها، وعلى حرمة المجتمع كله.

إن هذه الفاحشة المبينة، والجريمة العظيمة، لو تخيلتها – أيها القارئ الكريم – قد حدثت مع بعض محارمك وذويك؛ لطلبت على الفور دون تردد أو خذلان برجم الفاعل أيًّا من كان.. ثم إن هذه الجريمة الشنعاء قد تنتج أطفالًا أبرياء، يظل الواحد منهم معذبًا طيلة عمره من يوم جاء إلى أن تنتهي به الحياة، مُعَيَّرًا صباح مساء بلا ذنب جناه.

أما النقطة الثانية: فهي حالة الانقسام في المدينة المنورة بعد هذا الحدث الهام، وكيف كان موقف الرسول – عليه الصلاة والسلام – من هذا الجدال الدائر بين فريقين، قائل يقول: لقد هلك وقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز.. فيأتي خبر الأنام بحسام القول وفصل الخطاب الذي يعيه أولو الألباب: "لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم".

إننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نحيط برحمته عليه الصلاة والسلام بأمة الإسلام، فإنه مع كراهيته الشديدة للفعل الحرام يعلن أمام الناس جميعًا أن الله غفر لماعز خطيئته بشكل تام، فلا يحق للناس أن تخوض في عرضه ما دام الحد قد أقيم عليه، وأعلن توبته أمام الجميع بين يديه.

فلا نستطيع أن نقول عن الرسول الكريم غير ما وصفه به الخبير العليم في محكم التنزيل – القرآن الكريم – ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ الأنبياء ١٠٧

إن الرسول العظيم، الذي بعثه الله رحمة للعالمين، هو المثل الكامل لكل محب سائل، يبحث عن الفضائل للاقتداء بها، والسير على نهجها، فالمدرسة المحمدية تخرج لنا الحقائق النورانية، والحكم الربانية، فمن تمسك بهديها نجا، ومن سار على نهجها فاز، وحاز السعادة في دنياه وأخراه، ونال رضا مولاه.

إن الشخصية المحمدية الواضحة الصريحة، جمعت الشمائل والصفات المليحة، فلم يُبَشر بها سواه من رب البرية جلَّ في علاه "وإنك لعلى خلق عظيم".

فلنحيا نرتشف من هديه، ونغترف من فيض حبه؛ لنفوز بشفاعته يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

والسلام على من اتبع الهدى

والحمد لله رب العالمين.

الباب الثاني
الشمائل المحمدية

إني أقدم للقلوب النقية قطوفًا من الشمائل المحمدية؛ لتطلع عليها اطلاع الذكي الأريب، وتقتدي بهذا الرسول الحبيب: في أخلاقه وآدابه، وحكمته في طعامه وشرابه، وتواضعه وعباداته، وزهده في مسكنه وفراشه، وهديه في طبه ومداواته، وحكيم وصفاته الطبية لمعالجة الأمراض البشرية، وهي من وحي ربنا العليم بنا، بما ينفعنا ويضرنا.

وسنتعرف على بعض وصفاته الخلقية، وصورته الشريفة البهية، ونقوم بزيارة لبيته الجميل، ومعرفة كل شيء عن حياته المعيشية.

النبي الجميل:

أيها المحب للرسول الأمين، النبي الجميل، إن أقرب الطرق الواصلة إليه – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم – هي مدائحه سماعًا وإنشادًا بقلب سليم، وحب عظيم.. مع تصورك لروضته الوريفة، واستحضار صورته الشريفة، بواسطة الشمائل الجلية، المنقولة في كتب السنة المحمدية..

ويرحم الله القائل في وصفه لبعض تلك الشمائل:

أخلاي، إن شط الحبيب وربعه

وعز تلاقيه وناءت منازله

وفاتكم أن تبصروه بعينكم

فما فاتكم بالوصف هذي شمائله

(وصف الحبيب)

فقد كان أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خلقًا، ليس بالطويل الذاهب، ولا بالقصير. كان وجهه كالقمر ليلة البدر، لم يُرَ قبله ولا بعده مثله، لو رأيته لقلت: الشمس طالعة.. وكان إذا تكلم رُئي كالنور يخرج من بين ثناياه، وكان حسن الثغر، كثير شعر اللحية وأسودها، وكان مربوعًا بعيد ما بين المنكبين، أعظم الناس وأحسنهم، جمته إلى أذنيه. ما رأيت شيئًا قط أحسن منه، كان كأنما صيغ من فضة، وكأن عرقه اللؤلؤ، وكان ربعة من القوم ليس بالطويل ولا القصير، وكان أحسن الناس وجهًا.

قال أنس:

ما شممت شيئًا قط – مسكًا ولا عنبرًا – أطيب من ريح رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأوتي بدلو من الماء فشرب منه ثم مَجَّ في البئر ففاح منها مثل رائحة المسك.. وكان عرقه أطيب رائحة من أي طيب.

فمرحبًا بك يا رسول الله، ونقول:

المسك والكافور من عرق النبي

والورد والياسمين من وجناته

وقال أبو هريرة:

كان – صلى الله عليه وسلم – أحسن الناس صفة وأجملها، كان ربعة، بعيد ما بين المنكبين، أسيل الخدين، شديد سواد الشعر، أكحل العينين، أهدب، إذا وضع رداءه عن منكبيه فكأنه سبيكة فضة، وإذا ضحك يتلألأ، لم أرَ قبله ولا بعده مثله.. وكان إذا افْتَرَّ ضاحكًا (أي فتح فمه الشريف) اِفْتَرَّ عن مثل سنا البرق إذا تلألأ، وكان من أحسن عباد الله شفتين، وألطفهم ختم فم، فكان أزهر اللون (الأبيض ناصع البياض الذي لا تشوبه حمرة ولا صفرة ولا شيء من الألوان).

وكان ابن عمر – رضي الله عنهما – كثيرًا ما ينشد في مسجد رسول الله نعتَ عمِّه أبي طالب إياه في لونه، حيث يقول:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه

ثمالُ اليتامى عصمةُ الأرامل

فمعلوم لدى كل ذي قلب سليم، وعقل فهيم، أن الله جلت قدرته وعظمت حكمته، صاغ نبيه صياغة خاصة، فحسَّنه وجمَّله، وكمَّله، وجلَّله، وعظَّمه، وفضَّله..

ولئن كان العظماء من الناس تبرز عظمة أحدهم في جانب من جوانبه؛ فإن نبينا قد حاز ذروة الشرف في سائر جوانبه كلها، حيث كمَّله ربُّه – تبارك وتعالى – روحًا وجسدًا، قلبًا وعقلًا، ظاهرًا وباطنًا، خَلْقًا وخُلُقًا، كيف لا؟ وهو حبيبه الأعظم، ونبيه الأكرم، ومصطفاه الأول، ومجتباه الخاتم عليه الصلاة والسلام.

منزلته:

وحسبك أن تصغى إلى قول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي وهو يقول لحبيبه عن

طريق جبريل عليه السلام، حين هبط عليه وقال:

- "يا محمد، إن ربك يقول لك: إن كنت اتخذت إبراهيم خليلًا؛ فقد اتخذتك حبيبًا. وما خلقت خلقًا أكرم عليَّ منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا" رواه ابن عساكر عن سيدنا سلمان الفارسي.

وإذا قال الحق – جل جلاله – لكليمه موسى عليه السلام: ﴿**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾ طه ٣٩، فقد قال تبارك وتعالى لحبيبه محمد: ﴿**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ الطور ٤٨، لهذا فقد أحاطته منذ الأزل العنايةُ الإلهية، وواكبت أطواره الحياتية كلها؛ فصار أعظم العظماء في سائر الأنحاء، ومختلف الأجواء، على سائر الخلق في الأرض والسماء.. ألا وإن من أبرز جوانب عظمته، حسنه الظاهر، وجماله الخلقي الباهر؛ مما جعل رؤية محياه ولو مرة واحدة قادرة على إيقاظ الفطرة النقية، وإشعال أشواق المحبة الإلهية، ونقل السعيد الموفق إلى الأحوال السنية، والمراتب العلية.

وقد تغنى بمدحه وحبه سيدنا (حسان بن ثابت) شاعر الحضرة المحمدية، مخاطبًا نبيه وحبيبه الجميل:

وأجمل منك لم ترَ قطُّ عيني وأجمل منك لم تلد النساء

خُلقت مبرءًا من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

حقُّ الرسول علينا:

اجمع يا أخي همَّتك، واربط على قلبك، وارحل بروحك إلى عصره العظيم، واستغرق في حبِّه عليه الصلاة والسلام؛ فإن حبَّه ليس نافلة، بل هو من ألزم واجبات هذا الدين القويم، وأوجب الفرائض والضرورات التي فرضها الله رب العالمين؛ لأنه علامة على اكتمال الإيمان واليقين، وأن يكون حبك له زائدًا عن حب الأهل والولد، وهذا ما دعا نبينا الجميل لذلك التبيان، الذي ينقذ أمته ويحميها من ضعف الإيمان، حيث قال عليه الصلاة وأزكى السلام: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين" رواه البخاري ومسلم والنسائي وغيرهم.

كما قال: "لا يؤمن أحدكم حتى تكون ذاتي أحب إليه من ذاته، وعترتي أحب إليه

من عترته" رواه البيهقي والطبراني وأبو الشيخ.

بل لا بد لحبه أن يتجاوز أن يتجاوز حدَّ الزيادة حتى عن حب العبد لنفسه، قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – للنبي: "لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي التي بين جنبي" فقال له النبي: "لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه" فقال عمر: "والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إليَّ من نفسي التي بين جنبي" فقال النبي: "الآن يا عمر" يعني كمُل إيمانُك. رواه البخاري.

فهيا أخي المؤمن اللبيب، لتجديد هذه المحبة المحمدية، التي لا يصح لنا إسلام، ولا يكمل لنا إيمان بدونها، تلك المحبة كثيرة أبوابها؛ أوسعها مدخلًا، وأيسرها ولوجًا، وأعظمها أجرًا، وأصفاها رؤية، وأنقاها ضياءً، هي:

١- اتباع سنته **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الحشر ٧**

٢- كثرة الصلاة والسلام عليه؛ فإنها تبلغه **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ الأحزاب ٥٦**

٣- إدامة التفكر فيه عليه الصلاة والسلام.

٤- إدامة النظر في صورته، فهي خير معين على تذكره وزيادة محبته.

وقد اهتم الصحابة الكرام ومن بعدهم بنقل أوصافه الخلقية وصورته الحسية إلينا، بصورة جلية تسهل علينا رؤية تصويرية لطلعته البهية، فنراه من خلالها رؤية قلبية بروح إيمانية، وتجليات نورانية، فهي الصورة الدائمة والذكرى الباقية **﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** الذاريات ٥٥

يقول الشيخ عبد الكريم الجيلي: متى تعقل العبد هذه الصورة في قلبه، وكان دائم الملاحظة لها؛ حصلت له السعادة الكبرى، وانفتح بينه وبين النبي طريق الاستمداد بغير واسطة.. فحين تطالعها فكأنك ترى بعينيك صاحب الجمال البهي، والوجه الوضي، والنور السني، والخلق الرضي، والكف الندي، والقلب التقي، والأدب السمي، والمقام العلي، والسر الخفي، من لا يعلم قدره إلا ربه، ويا سعده من اكتحلت عيناه برؤيته:

عذرًا رسول الله إن قصرت في

وصف فإن جمالكم لن يوصفا

جاءت قديمًا ذرة من نوركم

قد جمل الرحمن منها يوسف

والله لو جد العباقر كلهم

في وصف أفضال لكم لن تعرفا

والله لو ماء البحار بجمعها

كان المدادَ لوصف أحمد ما كفى

والله لو قلمُ الزمان من البداية

للنهاية ظل يكتب ما اكتفى

عليك صلوات الله وسلامه يا رسول الله.

إن هذه السطور – على قلتها – مقارنة بقيمة صورة رسول الله وعظمتها، تأتي أهميتها من خلال دعوتنا للتحلي بكل سمات الحبيب، وألا تغيب عنا، فلا تفارقنا ولا نفارقها.. فصاحبها – عليه الصلاة والسلام – هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ۚ﴾ المائدة ٣

فالحبيب إذ بجسده غاب، صورته مطبوعة في الفؤاد لا تفارق الأحباب، فهو القدوة الحسنة التي ينصلح بها حال الأمة، ويزاح بها الكرب والهم والغمة.. معنا في كل خطوة نخطوها، وكل فعلة نفعله، وكل خلق نتخلق به.. نقرئه السلام فيأتينا الرد في الحال من ملائكة كرام، فأفضل الصلاة وأزكى السلام عليك يا رسول الله، يا حبيب الله ومجتباه.. قدوتنا الصالحة التي نتأسى بها في أمورنا؛ فينصلح بها حال دنيانا ودِيننا.

زيارة لبيت النبوة

تعالَ معي أيها القارئ الأريب لنتعلم من زيارتنا لبيت الحبيب.. هذا البيت العذب الجميل الذي يتحلى ساكنه الأمين برقة المعاملة مع أمهات المؤمنين، وعلو خلقه الكريم.

ولنذهب بقلوبنا وعقولنا في رحلة إيمانية، نعيش خلالها يومًا كاملًا مع خير البرية.. نرى مسكنه وفراشه، طعامه وشرابه، نُسكه وعباداته، وسائر أحواله المعيشية؛ لنتأسى بها، ونسير على نهجها في الحياة، فما أبهى الاقتداء بالرحمة المهداة، والنعمة المسداة.

بيت النبي في المدينة:

ها هي آلة الزمن ترجع بنا إلى الخلف رويدًا رويدًا ونحن بها، فها هي (يثرب) في أبهى حللها، وأعظم وأسمى أيامها..

هل تحب أن تلتقي من الرسول الكريم؟ إنها رؤية غالية للمبعوث رحمة للعالمين.. وما من أحد من المؤمنين إلا ويحب أن يرى الرسول عن كثي؛ حبًّا فاق الأهل والولد.

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قول النبي صلى الله عليه وسلم: "والذي نفس محمد بيده ليأتين على أحدكم يوم ولا يراني، ثم لأن يراني أحب إليه من أهله وماله معهم".

ها نحن نقف أمام بيت النبوة الآن! بشديد الاحترام وأدب الاستئذان ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢**﴾ الحجرات

تصلنا قبل السماح، رائحة عطر فواح. فما هذه الرائحة الطيبة الذكية؟ إنها رائحة عرق النبي خير البرية أجمعين! وها هو الإمام مسلم يخرج لنا ذلك المشهد لتتلقاه قلوب المؤمنين.

قال أنس بن مالك – رضي الله عنه: "ما شممت عنبرًا قط ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله، ولا مسست شيئًا قط ديباجًا ولا حريرًا ألين مسًّا من رسول الله" رواه مسلم في صحيحه.

هيا لندخل ونشم هذه الرائحة عن قرب بشوق وحب، ولتعلم قبل أن ترى النبي في

رحلتك، أنه هو أيضًا أكثر تشوقًا لرؤيتك، حتى أنه ذات يوم سمعه أصحابه الكرام – عليه الصلاة وأتم السلام – يقول: "وددت لو رأيت أحبابي، فقالوا: أولسنا أحبابك يا رسول الله؟ فقال لهم: بل أنتم أصحابي، أما أحبابي فقوم يأتون بعدي، يؤمنون بي ولم يروني"

فأي حب هذا الذي يتخطى الزمان؛ ليبث الدفء والشوق والحنين، ويرسله عبر القرون والسنين، لقوم في علم الغيب قادمين.. وأي اهتمام بأمته يعادل مقولته: "ما من شوكة يشاكها مؤمن إلا وجدت ألم ذلك في قلبي" بأبي أنت وأمي يا رسول الله!

فهل حبك له يعادل هذا الحب يا عبد الله؟ إن حبنا مهما بلغ مداه، فلن يبلغ في نهاية المطاف، حبه الذي يمثل أضعاف أضعاف ما بلغناه.

ولنقترب أكثر من باب بيت النبي، هذا الباب – ويا للعجب – ليس مصنوعًا من الحديد، ولا حتى من الخشب، وليس صرحًا منيعًا كصروحنا اليوم. إنه باب أسود اللون، بسيط الشأن، مصنوع من جلد الضأن **﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾** النحل ٨٠

ويُفتح من أسفل لأعلى حيث موضع التثبيت بحافة السقف المصنوع من جريد النخل على نحو متين، والبيت مصنوع من جريد مُطَيَّن بالطين، وبعضه من حجارة مرضومة – مبنية – بعضها فوق بعض بدقة واقتدار، وأبعاد البيت أربعة أمتار ونصف بارتفاع حوالي ثلاثة أمتار، وبالبيت مدخل صغير وحجرة أبعادها ثلاثة أمتار ونصف في ثلاثة أمتار، والحجرة من أكسية الشعر مربوطة في خشب عرعر..

ويقول البرزنجي: إن بيت السيدة عائشة كان له بابان، باب غربي يفتح على المسجد من الناحية الغربية، ويلاصق الباب الغربي من الحجرة المسجد. وباب شرقي يفتح في الممر بين الحجرات، وكان من عرعر أو ساج، ويلاحظ أن الجدار الغربي من البيت هو جدار الحجرة الغربي، وباب البيت الذي هو على المسجد هو باب الحجرة الغربي، ويوجد ممر خلف الحجرات وهو الذي كان يستخدمه النبي للمرور على نسائه.

وورد أن باب الحجرة عرضه يزيد عن ذراع أو ما يعادل ٧٠ سم، وارتفاعه ثلاثة أذرع مما يعادل مترًا ونصف المتر تقريبًا.

فإذا أمعنا النظر إلى فرش النبي بتؤدة وحذر، لا نرى سريرًا وثيرًا، ولا ديباجًا ولا

حريرًا، **فكيف كان ينام خير الأنام عليه الصلاة والسلام؟**

يقول أنس بن مالك: "إن وسادة الرسول التي يضعها تحت رأسه حشوها ليف، ويضع تحت جسده الشريف فرشة من الحصير، حتى دخل عليه عبد الله بن مسعود ذات يوم وهو مضطجع على الحصير، وقد أثرت وعملت علامات في جلد النبي ووجهه؛ فقام ابن مسعود يمسح عن جلده ويقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. ألا أذنت فنبسط لك شيئًا يقيك منه تنام عليه؟ فيقول النبي له: "مالي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظلَّ بظل شجرة ثم راح وتركها".

ها هو حبيبك المصطفى الأمين، يوضح لنا أجمعين، ما قد خفي على الكثيرين. فالدنيا مرحلة مسافر غير مستقر، ينزل فيها مدة من العمر، ثم ينتقل عنها إلى الآخرة (دار المقر) فلم يكن من هديه عليه الصلاة والسلام، وهدي أصحابه الكرام، ومن تبعهم بإحسان، الاعتناء بالمساكن وتشييدها، وتوسيعها، وتعليتها، وتجميلها، وزخرفتها، بل كانت من أحسن منازل المسافر، تقي من الحر الشديد والبرد القارس، وتستر من العيون الحداب، وتمنع من ولوج الدواب، ولا يخاف سقوطها لفرط ثقلها، ولا تعشش فيها الهوام لسعتها، وليست تحت الأرض فتؤذي ساكنها، ولا في غاية الارتفاع فتتوه معالمها، بل تتسم بالوسطية في مكوناتها، وتلك أعدل المساكن على إطلاقها، فلا تضيق على ساكنها، وتفوح رائحة الطيب منها، فالحبيب كان يحب الطيب، ويحرص على ما هو مفيد للبدن والصحة الجسدية، دون ترف أو رفاهية.

ولنسأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كيف كان النبي يتدبر أمر نومه ويقظته؟

فأخبرتنا - رضي الله عنها - أنه كان أعدل نوم وأنفعه للبدن والأعضاء والقوى، فإنه كان ينام أول الليل، ويستيقظ أول النصف الثاني، فيقوم ويستاك ويتوضأ ويصلي ما كتب الله له، فيأخذ البدن حظه من النوم والراحة، فلم يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج إليه، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه، فينام إذا دعته الحاجة إلى النوم على شقه الأيمن، ذاكرًا الله حتى تغلبه عيناه، وهو غير ممتلئ البدن من الطعام والشراب، ولا مباشر بجنبه الأرض ولا متخذ الفرش المرتفعة، بل له ضجاع (مفارش) من أَدْم (جلد مدبوغ) حشوه ليف، وكان يضطجع على الوسادة واضعًا يده تحت خده أحيانًا، وهذا هو غاية صلاح القلب والبدن مع وفور الأجر في الدنيا والآخرة.

دعاء قبل النوم:

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجاة منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت" وكان يجعله آخر كلامه.

وعن عائشة أن رسول الله إذا صلى ركعتي الفجر – يعني سنتها – اضطجع على شقه الأيمن.

الحكمة في النوم على الشق الأيمن:

حتى لا يستغرق النائم في نومه، فإن القلب فيه ميل إلى جهة اليسار، فإذا نام الإنسان على شقه الأيمن طلب القلب مستقرَّهُ من الجانب الأيسر، فلا نحمله أي ثقل من المعدة؛ وبالتالي لا يستثقل النائم في نومه ولا تفوته مصالح دينه ودنياه.

وقد حث النبي على الدعاء قبل النوم للتفويض والالتجاء إلى الله ليحفظه ويحفظ نفسه وبدنه، فهو بمنزلة الميت؛ لذلك عليه أن يستذكر الإيمان وينام عليه ويجعله آخر كلامه فربما توفاه الله في منامه ففاز بالجنان.

وهذا هو هدي النبي في النوم لمصالح القلب والبدن والروح، فصلوات الله وسلامه على من نالت به أمته كل خير.

ولنبحث الآن عن المطبخ (مكان إعداد الطعام) فلا نجد غير الأسودين (الماء والتمر)؛ فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام، كما أخبرت السيدة عائشة رضي الله عنها: "كانوا يرون الهلال ثم الهلال ثم الهلال (ثلاثة أهلة، ثلاثة أشهر) ولا يوجد في البيت نار، إنما كان طعام أهل البيت هو الأسودان (التمر والماء)

افتح عينيك على مدى الرفاهية، التي كان يعدها خير البرية ويحسبها على نفسه الطاهرة الزكية، ويؤديها بشكل سليم مستلهمًا آية الذكر الحكيم: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾ التكاثر ٨

ولنقارن هنا بين ما كان عليه بيت رسولنا، وبين ما فيه من مخزون في بيوتنا، ومن نعم ما بالنا نستهين بها، فلا نرضى بأرزاقنا، ولا نحمد الله عليها، ونتمرد على ما قسمه الله لنا، فيالنا من مسلمين جمعنا وفرة النعم وقلة الشكر لله لاب العالمين (اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون).

البرنامج الغذائي السليم للرسول عليه الصلاة والسلام:

وهيا بنا أيها القارئ الكريم، لنشاهد البرنامج الغذائي السليم الذي كان يتبعه النبي الكريم، وتحكيه لنا السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها:

كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتناول عشاءه قبل صلاة العشاء، لم يكن غذاؤه من النوع الثقيل الذي نسمع عنه الآن، ففي رواية أبي نعيم: "تقول عائشة رضي الله عنها: كان أغلب عشاء النبي اللبن المخثر" أي: الرائب.

وهو عشاء لمن يريد المحافظة على الصحة والرشاقة، والحبيب قال: "في ترك العَشَاء مَهْرمة" أي: من يريد الحفاظ على شبابه، ويعالج ما به من عناء، لا بد من تناول العشاء، ولكن لا بد أن يكون خفيفًا من اللبن أو اللبن الزبادي، أو بضع تمرات أو فاكهة.

وكان الحبيب يتناول عشاءه ثم يمشي إلى صلاة العشاء، ويقول: "أذيبوا طعامكم بذكر الله" فلا ينصح رسول الله بالنوم بعدها، بل المشي وقضاء بعض الوقت في ذكر الله حتى يترك الطعام المعدة التي (بيت الداء) وكان من المشهور عن الرسول أنه يمشي مع أصحابه بعد صلاة العشاء مقدار الزهراوين (البقرة وآل عمران) وهي فترة تقترب من الساعة.

ثم يعود الحبيب المصطفى إلى بيته، والنوم يداعب عينيه، فتسأله السيدة عائشة قبل أن تُوتِرَ؛ فيرد عليه الصلاة والسلام: |"يا عائشة، عيناي تنامان، وقلبي لا ينام".

ويعد أن ينام الرسول عليه الصلاة والسلام يستيقظ في الثلث الأخير من الليل، ويشرب العسل المذاب في الماء الذي جهزه قبل النوم، وبعد تناول شربة العسل يوتر ويتهجد، ثم يذهب إلى فراشه للاسترخاء قبل صلاة الفجر، استرخاء على نحو: اليد اليمنى منصوبة، والكف اليمنى تحت الرأس، حتى إذا سمع الأذان قام فاغتسل أو توضأ،

وخرج إلى الصلاة، ويظل في المسجد حتى شروق الشمس، ثم يعود إلى منزله لتناول الفطور، الذي كان أغلبه من التمر المنقوع في اللبن أو مع الماء، ثم يبدأ يومه على نحو ما جاء في سيرته الشريفة الغراء.

من هدي النبي في المطعم والمشرب:

من هدي الرسول أنه كان يمصُّ الماء مصًّا، ولا يعبُّ الماء عبًّا، ففي عي الماء دخول للهواء مع الماء، وهذا يعني انتفاخات في الجهاز الهضمي تؤدي إلى اضطرابات معدية، وإعاقة الحركة الطبيعية للطعام، ووصول الهواء إلى القولون؛ مما يؤدي إلى التهابات واضطرابات بشكل عام.

وكان الرسول يشرب الماء على ثلاث مرات، ويتنفس في كل مرة خارج الإناء؛ حتى يتمكن من إتمام الشرب دون دخول هواء إلى الجهاز الهضمي على نحو ما أسلفنا، وحتى لا تنتقل الميكروبات بالزفير فيه.

هذا ولم يشرب الرسول الماء أثناء الطعام، ولا بعد الطعام مباشرة؛ حتى لا يتم تخفيف العصارات الهاضمة، مما يرهق خلايا الإفراز؛ ولذا لا يستحب الطعام بعد الطعام، ولا الشرب أثناء الطعام أو بعده مباشرة، وهكذا كان هدي الحبيب عليه الصلاة والسلام.

وكان الرسول يحب العصائر مثل عصير العنب والبلح الطازج **﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** النحل ٦٧

أما عن الطعام فكان غذاؤه متنوعًا وأكثره بسيط بلا تعقيد، وإذا عافت نفسه الطعام لا يأكله.. قال أنس: "ما عاب رسول الله طعامًا قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه ولم يأكل منه، ولمَّا قدم إليه الضب المشوي لم يأكل منه، فقيل له: أهو حرام؟ قال: لا، ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه"

فالطعام الذي لم يعتد أكله بأرضه، كانت نفسه لا تشتهيه ويمسك عنه.

وكان يحب اللحم والعسل والحلواء، وهذه الثلاثة من أفضل الأغذية وأنفعها للبدن، الكبد والأعضاء، وللاغتذاء بها نفع عظيم في حفظ الصحة والقوة على النحو السليم.

وكان رسولنا الكريم يأكل الخبز دومًا ما وجد له إدامًا، وتارة يأدمه باللحم، ويقول: "هو سيد طعام أهل الدنيا والآخرة" رواه ابن ماجة.

وتارة بالبطيخ، وتارة بالتمر، وتارة بالخل، ويقول: "نعم الإدام الخل" وعند أبي داود أن النبي كان يأكل البطيخ الرطب ويقول: "يكسر حر هذا ببرد هذا، وبرد هذا بحر هذا" أخرجه النسائي بسند صحيح.

وعن حميد بن أنس: "رأيت الرسول يجمع بين الرطب والخرير – البطيخ الأصفر"

وهو يتبع القاعدة الطبية الحديثة فيجمع بين الأطعمة الحارة (الموجبة) والأطعمة الباردة (السالبة).

وها نحن نجد أخصائي التغذية ينصحون بالاهتمام بمعادلة الموجب بالسالب من أجل صحة الإنسان وحيويته.

وكان الرسول يأكل الأقط، وهو الجبن الخالي من الزبد، وهو ما يسمى في عصرنا بالقريش، وهو اختيار طبي حكيم لنبينا الكريم، وغذاء مثالي لبناء صحي لجسم رشيق حيوي سليم.

وأكل الرسول بعض الأغذية بلا تزيد مثل الحزيرة، وهي عصيدة الدقيق بالشحم المقطع فيها قطع اللحم، كذلك فمع مدح الرسول وقوله: "أطيب اللحم لحم الظهر" فإنه نهى عن كثرة أكل اللحم، وقال: "إن للقلب فرحة عند أكل اللحم، وما دام الفرح إلا أشر وبطر، ولكن مرة ومرة". الجامع لشعب الإيمان للبيهقي رقم ٥٢٧٤

وقال رسول الله عن الأرز: "إن سيد الطعام طعام اللحم ثم الأرز"، وقال وهو يأكل مرة البيض أن نبيًّا شكا إلى الله ضعفًا فأمره بأكل البيض.

هذه هي بعض أغذية الرسول باختلاف أصنافها، فكانت طريقة لطبيب حكيم يعرف كيف يأكل ومتى يأكل.

وهنا نذكر بعض القواعد الطبية النبوية في الطعام:

١- عدم الامتلاء، فعن الحبيب أنه قال: "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع"

وقال: "بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلًا، فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه".

٢- الاعتدال في الطعام، فلم يأكل الرسول قط متكئًا.

٣- جعل الطعام فرصة للقاء والحوار والتآلف في حب الله: "أذيبوا طعامكم بذكر الله".

٤- النشاط والحركة بعد الفطور والعشاء مطلوبان، أما بعد الغداء فهي فترة استرخاء، يكون معدل الأدرينالين فيها عاليًا، وكذا التستوستيرون؛ ولذا فهي فترة انتقالية ينصح فيها بالاسترخاء والنوم **﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾** النور ٥٨، فالجهد

والإرهاق في هذه الفترة عند بعض الفئات هو السبب في الأزمات القلبية؛ نتيجة ارتفاع نسبة الأدرينالين ولربما التستوستيرون باعتباره هرمون التوترات العصبية.. وهذه هي القواعد الأساسية لمن هو في حاجة إلى صحة وانتعاش وسعادة.

أغذية خاصة من الهدي النبوي

١- الخل:

قال رسول الله: "نعم الإدامَ الخّلُّ"

وقال: "اللهم بارك في الخَلِّ، فإنه كان إدام الأنبياء من قبلي".

استخدامات الخل:

١- مكمل غذائي لعلاج السكر، ووجد الباحثون أن استخدام الخل يوميًّا مع السلاطة يساعد على ضبط معدلات السكر في الدم، وقد وجد أن إضافة البصل على السلاطة يزيد في تحسين النتيجة.

٢- مكمل غذائي لتفادي تصلب الشرايين:

فقد وجد أن استخدامه يوميًّا مع السلاطة يقلل من احتمال زيادة الكوليسترول وتصلب الشرايين، ويزيد من النتيجة إضافة الثوم ومستخلصاته.

٣- إضافة الخل مع السلاطة يساعد في إنقاص الوزن مع اتباع برنامج غذائي.

٤- مضاد بكتيري وفطري وفيروسي؛ ولذا يستحب في الغذاء دائمًا.

٢- البلح – التمر:

في رواية أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "خير تمراتكم البرني يذهب الداء" وفي رواية عن أبي هريرة: "البرني دواء ليس فيه داء".

قال تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ مريم ٢٥

وكان رسول الله ينقع التمر فيشربه الغد وبعد الغد.

وفي رواية أبي نعيم: "أكل التمر أمان من القولنج".

وقال ابن عباس: "كان أحب التمر إلى رسول الله العجوة".

وعن أبي سعد بن أبي وقاص: "من تصبح بسبع تمرات وقَتْه من السمِّ والسِّحر" رواه الترمذي.. وقد اكتشف العلماء أن أكل التمر أو البلح يولد هالة زرقاء اللون حول جسم الإنسان، ووجد أن تلك الهالة الطيفية ذات اللون الأزرق تشكل درعًا واقية وحاجزًا منيعًا لعديد من الأمواج الكهرومغناطيسية اللا مرئية من الجن والحسد والسحر والعين الحاسدة.

وقال رسول الله: "إن في عجوة العالية شفاء".

وقال: "بيت لا تمر فيه جياعٌ أهلُه"، نعم، فثمرة النخيل ذات قيمة عظيمة.

فيتامينات التمر:

- فيتامين (أ) وهو هامٌّ لصحة الشعر والجلد وسلامة الإبصار، وهامٌّ في المناعة، وهو فيتامين الهدوء فيجلب للجسم الهدوء والسكينة.
- فيتامين ب (النياسين) أو حمض النيكوتونك، ويدخل في تكوين كرات الدم الحمراء.
- فيتامين ب١ يرتبط بالجهاز العصبي وتفاعلاته ولعلاج التهابات الأعصاب والمعدة وقرحتها.
- فيتامين ب٢ (الريبوفلافين) هامٌّ لامتصاص الحديد وتكوين كرات الدم الحمراء.

- **المعادن في التمر:**
- البوتاسيوم لعمل عضلة القلب والجهاز العصبي والعضلات.
- الماغنيسيوم لنقل الإشارات العصبية، ونقصه يسبب وجود السرطانات.
- الكالسيوم وهو يدخل في تكوين عظام قوية، وهذه كانت سنة فطور الحبيب.
- الفسفور يدخل في تركيب الجهاز العصبي والخلايا التناسلية والعظام.
- الحديد كما يقول صاحب كتاب (الغذاء لا الدواء):

"إن حبات تمر تفوق في مفعولها زجاجة كاملة من شراب الحديد، أو حقنة كالسيوم؛ لأن الحديد والكالسيوم محلولان طبيعيان في التمر، ويستفيد منهما جسم الإنسان بسرعة".

هذا هو التمر غذاء بلا دواء، فيه فيتامين أ إكسير الجلد والشعر الجميل، وفيه فيتامين ب الذي يوافق المجموعة العصبية، وفيه فيتامين ج الذي يدخل في جميع التفاعلات الجسمية، وفيه معادن الهدوء والجمال: "الحديد – الكالسيوم – الفسفور – المنجنيز – الماغنسيوم".

٣- الشعير:

روى الترمذي بسنده عن سليم بن عامر، أن أبا أمامة سمعه يقول: "ما كان يفضل عن أهل بيت رسول الله خبز الشعير".

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله إذا قيل له إن فلانًا وَجِعَ لا يطعم الطعام قال: عليكم بالتلبينة فحَسَوْه إياها، ويقول: "والذي نفسي بيده إنها تغسل بطن أحدكم كما تغسل إحداكن وجهها من الوسخ".

وروى ابن ماجة من حديث عائشة – رضي الله عنها – قالت: "كان رسول الله إذا أخذ أحدًا من أهله الوَعْكُ؛ أمر بالحَسَاء من شعير فصُنع ثم أمرهم فحَسَوْا منه، ثم يقول: إنه ليَرْتُو – يقوي – فؤاد الحزين، ويسر فؤاد السقيم كما تسر إحداكن إزالة الوسخ بالماء من وجهها".

تركيب الشعير:

يحتوي على بروتين ودهون وكربوهيدرات وألياف ومعادن أهمها الكالسيوم والحديد والمنجنيز والنحاس والماغنسيوم، كما يحتوي على فيتامين ج ومجموعة فيتامين ب وفيتامين أ و هـ

واحتواء الشعير على فيتامين هـ يجعله مضادًا جيدًا للشيخوخة ومضادًّا للأكسدة كذلك فيتامين أ

أما المعادن التي يحتويها فهي مهدئة ومضادة للاكتئاب والمنظمة للهرمونات، ولاحتواء الشعير على كمية لا بأس بها من الألياف جعله منظفًا جيدًا للقولون وللخلايا.

أما المدهش في الشعير فاحتواؤه على الميلاتونين وهي تفرزها الغدة الصنوبرية، ويزيد معدلها ليلًا، ولها خاصية خفض الكوليسترول والتوازن العصبي والنفسي.

فالشعير مضاد للشيخوخة وللأكسدة، وغذاء متوازن للجهاز العصبي والعواطف، وهو ما بدا واضحًا بالتجربة.

٤ ــ عسل النحل:

كان النبي – عليه الصلاة والسلام – بين الثانية والرابعة صباحًا يتناول باهتمام، محلول العسل، فهو مضاد للأكسدة (إكسير الشباب) وهو ما وصل إليه البحث العلمي الجديد، وهكذا كانت نصيحة الحبيب: "شفاء أمتي في ثلاث: شربة عسل، شرطة محجم، وكية نار، ولا أحب أن أكتوي".

وقال رسول الله: "عليكم بالشفاءين العسل والقرآن"

ويقول ربُّ العباد" **﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾** النحل ٦٩

وقد أثبتت التجارب العلمية الحديثة بلا شك ولا ارتياب، أن العسل مضاد للأكسدة، وأنه إكسير الشباب.

مع النبي (زينته وثيابه)

ما زلنا أيها القارئ المحب في مسكن الحبيب، وقد شهدنا منزله البسيط من قريب، وهو منزل المسافر الراحل، وفراشه فراش الزاهد العابد.

ومن خلال رحلتنا النورانية التي نحن فيها رفقاء، نستطيع أن نتقدم رويدًا رويدًا حتى نرى بجلاء وصفاء، أحوالًا وشمائل وقطوفًا، استجابة لنداء القلب المحب الشغوف، ونسلك الطريق الأمثل والأسلم، مستعينين بعدسات الإمامين البخاري ومسلم، فيمنحانا رؤية واضحة للعيان، عن حياة رسولنا الكريم عليه الصلاة وأزكى السلام.

فماذا عن شعر النبي ولحيته؟

أما عن شعر النبي الجميل، فلم يكن شديد النعومة ولم يكن خشنًا، بل كان وسطًا بين هذا وذاك، شديد السواد، وكانت لحيته أيضًا كذلك كما ورد وجاء، وكان يدهن شعره ويسرح لحيته ويخضب رأسه بالحناء.

عن أنس بن مالك قال: "كان رسول الله يكثر دهن رأسه، وتسريح لحيته، ويكثر القناع حتى كان ثوبه ثوب زيات".

حدثنا حماد بن سلمة عن سماك بن حرب قال: "قيل لجابر بن سمرة، أكان في رأس رسول الله شيب؟ قال: لم يكن في رأس رسول الله شيب إلا شعرات في مفرق رأسه إذا ادَّهَن وارهنَّ الدهن، أي: أخفاهنَّ".

عن أنس بن مالك قال: "رأيت شعر رسول الله مخضوبًا".

ومن طبائع الحبيب فطوره بالتمر والحليب، وعشاؤه اللبن المخثر (الزبادي) فما علاقة ذلك بالشعر؟

إن كل احتياجات الشعر الجميل موجودة في ثمرة النخيل (التمر أو البلح أو العجوة) أما اللبن أو الزبادي فإنه غذاء كامل وليس عاديًّا، فيه قيمة بروتين ومعادن عالية، وأشياء أخرى هامة وغالية للشعر وللبشرة بوجه عام، ولقد كان رسول الله – عليه الصلاة وأتم التسليم – يقول على الطعام: "اللهم بارك لنا فيه، وارزقنا خيرًا منه". أما اللبن فكان يقول: "اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه" فلم يجد الحبيب أمرًا من اللبن ليدعو به.

اكتحال الرسول عليه السلام بالإثمد:

فإذا نظرنا إلى عيني الحبيب عليه الصلاة والسلام بإمعان؛ وجدناهما نجلاوين أدعجهما، والعين النجلاء هي الواسعة الحسناء، والدعج هو شدة سواد الحدقة.

وكان أهدب الأشفار (الرموش) حتى تكاد تلتبس من كثرتها.

وكان الحبيب عليه الصلاة والسلام يكتحل بالإثمد كل ليلة قبل أن ينام.

قال الترمذي: "كان لرسول الله مكحلة يكتحل منها كل ليلة، ثلاثة في هذه وثلاثة في هذه" رواه أنس.

فالاكتحال مرغوب، ويحبب إلى القلوب، وطبقًا لما ورد عن الحبيب المحبوب قال: "إن خير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر، وينبت الشعر" أخرجه أبو داود والترمذي

فإذا نظرنا إلى فمه الشريف وأسنانه والسواك:

وجدناه أحسن عباد الله شفتين، وألطفهم ختم فم، وكان أفلج الأسنان أشنبها، والشنب: أن تكون الأسنان متفرقة، فيها طرائق مثل تفرق المشط إلا أنها حديدة الأطراف.

ومن خصائله وهديه أنه كان يتسوك، ففي رواية أبي نعيم عن السواك، يروي عن ابن عباس أن الرسول قال: "في السواك عشر خصال: يطيب الفم، ويشد اللثة، ويذهب البلغم، ويذهب الحفر، ويفتح المعدة، ويوافق السنة، ويرضي الرب، ويزيد الحسنات، ويُفرح الملائكة".

وقال حذيفة: "كان رسول الله إذا قام من الليل يُشَوِّص فاه بالسواك" أي: يحركه به.

والآن آن الأوان أيها الصاحب الرفيق، في هذه الرحلة المباركة الإيمانية، لنتعرف على ملابس خير البرية وعمامته ونعله.

فما هي أحب الثياب إليه؟

هيا معي لنسأل أم سلمة وأسماء بنت يزيد، وأنس بن مالك – رضي الله عنهم

جميعًا – هذا السؤال؛ فتأتينا الإجابة من سيدنا أنس بن مالك، فيقول: "كان أحب الثياب إلى رسول الله يلبسه الحبرة".

وتجيب أم سلمة قالت: "كان أحب الثياب إلى رسول الله القميص".

أما أسماء بنت يزيد؛ فقد قالت: "كان كُمُّ قميص رسول الله إلى الرسغ".

وقال أبو رمثة: "رأيت النبي وعليه بردان أخضران".

أما أم المؤمنين عائشة فقالت: "خرج رسول الله ذات غزاة وعليه مرط(*) من شعر أسود".

وقد أخبرنا سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله: "عليكم بالبياض من الثياب ليلبسها أحياؤكم، وكفنوا فيها موتاكم، فإنها خير ثيابكم **﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾** النحل ٨١

ولننظر إلى قدميه الشريفتين لنرى ماذا كان يرتدي فيهما؟

فعن قتادة قال: قلت لأنس بن مالك: كيف كان نعل رسول الله؟ قال: لهما قبالان.

وعن ابن عباس قال: كان لنعل رسول الله قبالان مثنى شراكهما.

حدثنا إسحاق بن موسى عن جابر: أن النبي نهى أن يأكل – يعني الرجل – بشماله، أو يمشي في نعل واحدة.

عن عائشة - رضي الله عنها – قالت: كان رسول الله يحب التيمن ما استطاع في ترجله وتنعله وطهوره.

ولننظر إلى عمامة النبي وإزاره الشريف:

سيحدثنا عن عمامته أبو الزبير عن جابر – رضي الله عنه – قال: دخل النبي مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء.

(*) المرط: الكساء من الصوف أو الخز.

أما عن إزار الرسول الشريف، فعن أبي بردة عن أبيه قال: "أخرجت إلينا عائشة – رضي الله عنها – كساء ملبدًا وإزارًا غليظًا فقالت: فبض روح رسول الله في هذين"

عن الأشعث بن سليم قال: "سمعت عمتي تتحدث عن عمها: بينما أنا أمشي بالمدينة إذا بإنسان خلفي يقول: ارفع إزارك فإنه أتقى وأبقى؛ فالتفتُّ فإذا هو رسول الله؛ فقلت: يا رسول الله إنما هي بردة ملحاء، قال: أما لك فيَّ أسوة؟ فنظرت فإذا إزاره إلى نصف ساقه".

صفة كلام رسول الله ومنطقه في الحياة:

والآن فلننظر ونتعلم من خصاله وشمائله الحميدة، كيف كان رسول الله يتكلم، وما هو منطقه في الحياة.. فتحدثنا عائشة – رضي الله عنها – واصفة كلامه وحديثه، فتقول: "ما كان رسول الله يسرد الكلام كسردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بيِّنٍ فصل، يحفظه من جلس إليه"

وها هو أنس بن مالك يشرح لنا كلام رسول، فيقول: "كان رسول الله يعيد الكلمة ثلاثًا لتعقل عنه"

ولنتعلم منطق الرسول حكيمنا ومرشدنا، ويدلنا على ذلك الحسن بن علي – رضي الله عنه – قال: "سألت خالي هند بن أبي هالة وكان وصَّافًا، قلت: صف لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: كان رسول الله متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئًا غير أنه لم يكن يذم ذواقًا ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه وغل – أي: شدد النظر – ضحكه التبسم يفتر عن مثل حب الغمام".

وصف مشي الحبيب وخطاه:

ها هو الحبيب بشمائله وصفاته، نقترب منه لنرى مشيته وخطواته، التي يصفها لنا أبو هريرة – رضي الله عنه – وعلي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – على النحو التالي:

عن أبي هريرة قال: "ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع في مشيته من رسول الله، تُطوى له الأرض، وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث".

ولننظر لقول سيدنا علي وهو يصف الحبيب وصف الدقيق الأريب حين قال: "كان إذا مشى تقلع – رفع رجليه – كأنما ينحطُّ من صبب" أي ينزل من منحدر.

أدب المصافحة والمعانقة والتقبيل:

وقد أمرنا رسولنا الكريم بالمصافحة في أبلغ مقال عندما قال: "تصافحوا يذهب الغل، وتهادَوْا تحابوا وتذهب الشحناء".

فالمصافحة تذهب الحقد والعداوة والبغضاء، ويحل بها الصفاء والنقاء والإخاء؛ ولذلك فالعناية بها والحرص عليها له فوائد لا حصر لها، ذكرنا بعضها بشكل دقيق ومحسوب، منها: إفشاء المحبة، وإذهاب الغل والحقد، ومغفرة الذنوب؛ فقد قال الحبيب المحبوب: "ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفر لهما قبل أن يفترقا" رواه الترمذي.

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: "كان أصحاب رسول الله إذا تلاقَوْا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا" رواه الطبراني

وعن رسول الله أنه قال للأنصار والصحابة جميعًا لما قدم سعد بن معاذ للحكم في بني قريظة: "قوموا إلى سيدكم: يعني للسلام عليه والأخذ بيده والترحيب به، وهذا من خلق النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. أما أن يقوم الناس تعظيمًا للشخص عند دخوله وليس بُغية المصافحة والسلام؛ فهذا ما كان ينهى عنه ويكرهه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام؛ فقد كان الصحابة لا يقومون

من أماكنهم إلا إذا كان القيام بغية المصافحة والسلام، وإجلاس القادم في أنسب مكان، محاطًا ببشاشة وجه وطيب إكرام، على نحو ما هدانا إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام..

عن ابن ماجة عن أنس بن مالك قال: "قلنا يا رسول الله، أينحني بعضنا لبعض؟ قال لا، قلنا: أيعانق بعضنا بعضًا؟ قال لا، ولكن تصافحوا".

هذا الحديث يبين أنه إذا التقى المسلم بأخيه المسلم، فإنه لا يعانقه ولا يقبله ما دام مقيمًا في المكان، ولم يأت من سفر أو بعد غيبة طويلة عن الأهل والصحب والخلان.. كما أمرنا عليه الصلاة والسلام أثناء السلام بعدم الانحناء وإنما المصافحة ببشاشة وجه ولين جانب وحرارة لقاء.

وهذا هو خلق الرسول الكريم في التقبيل أو المعانقة مع الكبار، أما مع الصغار فكان يقبلهم ويمسح على رءوسهم بلطف ولين، كما كان يفعل مع سبطيه الحسن والحسين، بملاطفته لهما، وملاعبتهما وتقبيلهما.

وكان الرسول الكريم يقبل الميت قبلات رحمة، وهو المبعوث رحمة للعالمين، فيكشف وجهه ويقبله بين العينين، وقد قبَّل الحجر الأسود بعد استلامه باليمين، وهذا هو هديه في المصافحة والمعانقة والتقبيل.

هدي الحبيب في الرياضة

من هدي الحبيب في الرياضة، وهي تدبير الحركة والسكون:

أ – رياضة البدن (تدبير الحركة):

قال عليه الصلاة والسلام: "علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل" حديث حسن.

فالحركة أقوى الأسباب المؤدية إلى الوقاية والعلاج من كثير من العلل والأوجاع والأمراض، وبالإضافة إلى ما فات المساعدة في عملية الهضم وإخراج الفضلات، وتعود الرياضة على البدن بالخفة والنشاط، وتقوي الأوتار والأربطة، وتمنع تصلب المفاصل والشرايين، وتمنع ترهل العضلات، فأي عضو من الأعضاء في حاجة للحركة على نحو ما جاء في حديث خاتم الأنبياء – سباحة ورماية وركوب خيل – وأقلها وأيسرها على الإنسان، مجرد السير على الأقدام يوميًّا بشكل معتاد؛ وهو ما يؤدي إلى اقتلاع كثير من الأمراض بصفة نهائية، واكتساب الجسم للنشاط والحيوية.

ب – رياضة النفوس:

بالتعلم والتأدب والفرح والسرور والصبر والثبات والإقدام على فعل الخير مما ترقى به النفوس، ومن أعظم رياضتها الصبر والشجاعة والإحسان، فلا تزال ترتاض حتى تصير هذه الصفات ملكات ثابتة، فإذا تأملت هديه في ذلك وجدته أجمل هدي محافظ على الصحة والقوة، ونافع في المعاش والمعاد.

ج – رياضة الروح:

ولكون الإنسان مخلوقًا من روح وجسد؛ وجب الاهتمام برياضة الروح اهتمامًا لا يقل عمَّا في عاليه ورد. ومن عجب أن رياضة الروح بالصلاة تفيد الروح والنفس والجسد معًا.

١- الصلاة

ورد في كتاب أسواق الذهب لأحمد شوقي:

"لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالح العادات، رياضة أبدان وطهارة أردان[١] وتهذيب وجدان، وشتى فضائل يشب عليها الجواري والولدان، أصحابها هم الصابرون والمثابرون، وعلى الواجب هم القادرون، عودتهم البكور وهو مفتاح الرزق، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الزارق، وأفضل ما يرد به المخلوق التوجه إلى الخالق..

ولهم إليها بعد البكور رواح، فإذا هي تصرفهم عن دواعي الليل ومغرياته، وتعصمهم فيه من عوادي الفراغ ومغوياته، والليل خلوات وشهوات وبيت الغوايات، وتجزئة الوقت مع الصلاة ملحوظة، وقيمته عند الذين يقيمونها محفوظة، عودتهم أن يذكروه ويقدروه، وأن يوسوسوه في أعمالهم ويدبروه، والوقت ميزان المصالح، وملاك الأمور، ودولاب الأعمال. انظر إلى جلال الجُمَع وتأمل أثرها في المجتمع، وكيف تساوت العِلِيةُ بالزَّمع مسَّت الأرض الجباه، فالناس أكفاء وأشباه الرعية والولاة شرع في عتبة الله، خَرَّ الجمع للمناخر الصف الأول كالآخر لم يرفع المتصدر تصدره، ولم يضع المتأخر تأخره".

فالصلاة عمود الدين، وركنه الركين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.. وفيها على نحو يقين فوائد صحية عديدة ومفيدة، وسعادة جديدة في الدنيا والآخرة، تمنع الندم على ما فات، وتفيد البدن وتكسبه النشاط؛ فقد جاء في الصحيحين عن النبي أنه قال: "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد؛ فإذا هو استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإذا توضأ انحلت عقدة ثانية، فإن صلى انحلت عُقَدُه كلها؛ فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان".

صلاة الرسول:

عن الأسود بن يزيد قال: "سألت عائشة – رضي الله عنها – عن صلاة رسول

[١] أَردان وأَردِنة: كُمٌّ، مدخل اليد ومخرجها من الثوب، يقال: قميص واسع الأردان، وفلانٌ طيّبُ الأردان: شريفٌ طاهر.

الله بالليل؛ فقالت: كان ينام أول الليل ثم يقوم، فإذا كان من السحر أوتر ثم أتى فراشة، فإذا كان له حاجة ألم بأهله، فإذا سمع الأذان وثب، فإن كان جنبًا أفاض عليه من الماء وإلا توضأ وخرج إلى الصلاة".

وعن ابن عباس قال: "كان النبي يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة".

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة – رضي الله عنها – عن صلاة رسول الله في رمضان؛ فقالت: "ما كان رسول الله ليزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا. قالت عائشة: قلت يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ قال: "يا عائشة، إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي".

وسُئلت عائشة عن صلاة رسول الله عن تطوعه؛ فقالت: "كان يصلي ليلًا طويلًا قائمًا، وليلًا طويلًا قاعدًا، فإذا قرأ وهو قائم ركع وسجد وهو قائم، وإذا قرأ وهو جالس ركع وسجد وهو جالس".

سمعت معاذة قالت: "قلت لعائشة رضي الله عنها: أكان النبي يصلي الضحى؟ قالت: "نعم، أربع ركعات، ويزيد ما شاء الله عز وجل".

وعن عبد الله بن سعد قال: "سألت رسول الله عن الصلاة في بيتي والصلاة في المسجد، قال: "قد ترى ما أقرب بيتي من المسجد، فلأن أصلي في بيتي أحب إليَّ من أن أصلي في المسجد، إلا أن تكون صلاة مكتوبة".

الفوائد الطبية للصلاة:

أظهرت أحدث البحوث العلمية، بطريقة واضحة جلية، أن مواقيت صلاة المسلمين تتوافق بشكل سليم وتام مع أوقات النشاط الفسيولوجي لجسم الإنسان؛ مما يجعلها القائد الذي يضبط إيقاع عمل الجسم كله في توافق وانسجام، وقد جاء في كتاب "الاستشفاء بالصلاة" للدكتور زهير رابح: "إن الكورتيزون هو هرمون النشاط في جسم الإنسان يبدأ بالازدياد وبحدة مع دخول وقت صلاة الفجر ويتلازم معه ارتفاع منسوب ضغط الدم؛ ولهذا يشعر الإنسان بنشاط كبير بعد صلاة الفجر".

لذا نجد هذا الوقت بعد الصلاة هو وقت العمل والجد، والسعي لكسب الرزق؛ فقد قال الرسول الكريم: "اللهم بارك لأمتي في بكورها" كذلك يكون في هذا الوقت أعلى نسبة لغاز الأوزون في الجو؛ ولهذا الغاز تأثير منشط للجهاز العصبي، وللأعمال الذهنية والعضلية، ونجد العكس من ذلك على وجه العموم عند وقت الضحى، فيقل إفراز الكورتيزون، ويكون حده الأدنى فيشعر الإنسان بالإرهاق مع ضغط العمل، وتنتابه حالة من الخمول والكسل، ويصبح في حاجة إلى راحة – دون أن يفكر – بعد سبع ساعات من استيقاظه المبكر.

وهنا يدخل وقت صلاة الظهر، فتؤدي دورها كأحسن ما يكون في بث الهدوء والسكون في الجسد والقلب المتعبين، بعدها يسعى المسلم إلى طلب ساعة من النوم، تريحه وتجدد نشاطه بقية اليوم، وذلك بعد صلاة الظهر وقبل صلاة العصر، وهو ما يطلق عليه (القيلولة) وقد قال عنه رسول الله: "استعينوا بطعام السحر على الصيام، وبالقيلولة على قيام الليل"، وقال: "أقيلوا فإن الشياطين لا تقيل"، وقد ثبت علميًّا أن جسم الإنسان يمر بشكل عام بصعوبة بالغة، حيث يرتفع معدل المادة الكيميائية المخدرة التي يفرزها الجسم على وجه العموم، وتحرضه على النوم بعد الاستيقاظ المبكر بسبع ساعات، فيكون الجسم في أقل حالات التركيز والنشاط، وإذا ما استغنى الإنسان في هذه الفترة عن النوم؛ فإن التوافق العضلي والعصبي يتناقص كثيرًا طوال هذا اليوم.

ثم تأتي صلاة العصر ليعاود الجسم بعدها نشاطه مرة أخرى كالمعتاد ويصبح معدل الأدرينالين في الدم في ازدياد فيحدث نشاط ملموس في وظائف جسم الإنسان بوجه عام، خاصة النشاط القلبي والعضلي، فصلاة العصر لها دور خطير وأثر كبير في تهيئة الجسم والقلب لاستقبال النشاط المفاجئ الذي كثيرًا ما يتسبب في متاعب لمرضى القلب للتحول المفاجئ من الخمول والسكون، إلى الحركة النشطة بقية اليوم، وهنا يتجلى لنا السر البديع الحكيم في توصية القرآن الكريم بالمحافظة على صلاة العصر **﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ البقرة ٢٣٨**

ولقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الصلاة الوسطى هنا هي صلاة العصر.

ومع الكشف الذي ذكرناه من ازدياد إفراز هرمون الأدرينالين في هذا الوقت والحين، يتضح لنا السر المبين في تأكيد رب العالمين على أداء الصلاة الوسطى

قانتين، فأداؤها على مر السنين ينشط القلب تدريجيًّا ويجعله يعمل بكفاءة أعلى بعد حالة من الخمول الشديد، ودون شعور بإرهاق عتيد، فيستغرق الجسم وحواسه في الصلاة استغراقًا تامًّا؛ فيسهل على القلب مع الهرمون تأمين إيقاعها الطبيعي حالًا.

ثم تأتي صلاة المغرب فيقل إفراز الكورتيزون، ويبدأ نشاط جسم الإنسان في التناقص بوجه عام، وذلك مع التحول من الضوء إلى الظلام، وهو عكس ما يحدث في صلاة الصبح تمامًا بتمام؛ فتفرز مادة الميلاتونين المشجعة على الاسترخاء والنوم، فيحدث تكاسل الجسم في هذا الحال، وتكون الصلاة بمثابة محطة انتقال..

وتأتي صلاة العشاء لتكون هي المحطة الأخيرة في مسار اليوم، والتي ينتقل فيها الجسم من حالة النشاط والحركة إلى حالة الرغبة التامة في النوم مع شيوع الظلام وإفراز الميلاتونين؛ ولذا يستحب للمسلمين أن يؤخروا صلاة العشاء إلى قبيل النوم بقليل، وقد جاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل عن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – أنه قال: "لمَّا تأخر رسول الله عن صلاة العشاء في أحد الأيام، وظن الناس أنه صلى ولن يخرج؛ فقال رسول الله: "أعتموا بهذه الصلاة أي: أخروها إلى العَتَمة – فقد فضلتم بها على سائر الأمم ولم تصلها أمة قبلكم" ولا ننسى أن إفراز الميلاتونين بانتظام له صلة وثيقة بالنضوج العقلي والجنسي للإنسان، ويكون هذا الانتظام باتباع الجسم لبرنامج ونظام حياة ثابت؛ لذا نجد أن الالتزام بأداء الصلوات في وقتها هو أسلوب يضمن للإنسان توافقًا كاملًا مع أنشطته اليومية؛ مما يؤدي لأعلى كفاءة وظيفية لأجهزة الجسم البشري.

١- الصلاة شفاء للبدن:

١- الصلاة وقاية:

فهي وقاية من الدوالي، وهو خلل شائع في أوردة الساقين، يتمثل في ظهور أوردة غليظة ومتعرجة وممتلئة بالدماء متغيرة اللون على طول الطرفين السفليين، وفي بحث علمي حديث ثبتت العلاقة الوطيدة بين أداء الصلاة وبين الوقاية من هذا المرض اللعين.

ب – الصلاة وتقوية العظام:

تمر العظام بمراحل متعاقبة، مرحلة بناء، تليها مرحلة الهدم، ثم البناء، ثم الهدم.. وهكذا باستمرار.

وقد ثبت مؤخرًا أنه يوجد تيار كهربائي ذو قطبين مختلفين، يؤثر في توزيع وظائف خلايا العظم حسب اختصاصها (خلايا بناء أو خلايا هدم) أثبتت التجارب أنه في حالة الخمول والراحة يقل التيار الكهربائي؛ مما يفقد العظام موادها المكونة لها؛ فتصبح رقيقة ضعيفة.

فالراحة التامة تصيب العظام بضمور تام؛ لأن فقدان الحركة يؤدي إلى نشاط الخلايا الهدامة بصفة عامة، وضعف في خلايا البناء؛ مما يؤدي إلى نقص المادة العظمية، ويأتي أداء سبع عشرة ركعة يوميًّا هي فرائض الصلاة، وعدد أكثر من النوافل التي يؤديها عباد الله؛ تجعل الإنسان ملتزمًا بأداء حركي جسمي لا يقل زمنه عن ساعتين يوميًّا، وهكذا يحرص المسلمون على الالتزام بالصلاة كالتزام وطاعة لله، ووسيلة لتقوية عظام الإنسان، وجعلها متينة سليمة على مدى الأعوام.

ج - فوائد طبية أخرى:

ومن فوائد الصلاة أنها تقوي عضلات البطن؛ لأنها تمنع تراكم الدهون التي تؤدي إلى البدانة؛ فتمنع تشوهات الجسم، وتزيد من رشاقته، والصلاة بحركتها المتعددة تزيد من حركة الأمعاء؛ فتقلل من حالات الإمساك وتقي منه، وتقوي كذلك من إفراز المرارة.

ووضع الركوع والسجود وما يحدث من ضغط على أطراف أصابع القدمين،

يؤدي إلى تقليل الضغط على الدماغ، وذلك كأثر تدليك أصابع الأقدام تمامًا بتمام؛ مما يشعر الإنسان بالاسترخاء والهدوء التام.

أما السجود الطويل فيؤدي إلى عودة ضغط الدم إلى معدلاته الطبيعية، وتدفقه إلى كل أجهزة الجسم بشكل عام.

٢- الصلاة علاج نفسي (شفاء للنفس):

تساعد الصلاة الخاشعة بصورة رائعة بارعة، على تهدئة نفس الإنسان، وإزالة التوتر والانفعال، والقلق والهموم والأحزان؛ فالإنسان وهو واقف أمام قدرة الله وعظمته يعلم علم اليقين أن مشكلاته سيدبرها الخالق والمدبر العظيم؛ فيلقي بكل ما في جعبته من مشكلات وأحوال، على تصريف العليِّ المتعال؛ فيخرج المسلم من صلاته وهو هادئ النفس، مطمئن البال.

وتعالَ معي إلى الدكتور ألكسيس كاريل – الحائز على جائزة نوبل في الطب – لتجده يقول عن الصلاة: "إنها تحدث نشاطًا غريبًا في أجهزة الجسم وأعضائه، بل هي أعظم مولد للنشاط عُرف إلى يومنا هذا، وقد أثرت الصلاة في مداواة أمراض مختلفة مثل التدرن البريتوني، والتهاب العظام، والجروح المتقيحة، والسرطان، وغيرها مما أخفقت العقاقير في علاجها، فالصلاة كمعدن الراديوم مصدر للإشعاع، ومولد ذاتي للنشاط، فجعل الله للصلاة تأثيرًا في مداواة هذه الأمراض المختلفة".

وللسجود دور عميق وكبير في إزالة القلق وحالات التكدير التي تنتاب نفس المسلم في أحيان، فتأتي الصلاة لتوفر الاطمئنان النفسي من جديد، وتغمر النفس بفيض من السكينة، وطوفان من نور اليقين والتوحيد؛ ولهذا السبب لا ينتابنا العجب عندما نعلم الآن أن كثيرًا من الناس في اليابان يخرون ساجدين بمجرد شعورهم بالإرهاق أو الضيق أو الاكتئاب أو التعب، دون أن يعرفوا على نحو سليم، أن هذا السجود ركن من أركان الصلاة عند المسلمين.

٣ – الصلاة والدعاء غذاء الروح:

قال رسول الله: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر"

فالصلاة مناجاة بين العبد وربه – جل في علاه – وفيها تنطلق الروح لتأخذ نصيبها من الأنوار الإيمانية، والتجليات النورانية، بالدعاء والذكر والقرآن. فالكلمة الإلهية هي أكبر مؤثر على قلب الإنسان، وهي غذاء للروح تميزها عن أي كلام ينطقه الإنسان، فتنغمس نفوسنا في طيات الكلمة الإلهية بجاذبية وقدرة على التخلص من الرغبات الشخصية، والصفات المادية؛ لتصبح نفسًا راضية مرضية، حيث يخاطبها المولى بقوله: ﴿**يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾**﴾ الفجر

فإذا قمنا إلى الصلاة بين يدي الله بكل خضوع وخشوع؛ أراحنا بها الحي القيوم، من الهموم والغموم والأحزان، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "قم يا بلال فأرحنا بالصلاة" فأصبحت على نحو مبين روحًا وريحانًا وجنة نعيم.

ولنعلم يا صديقي على درب الإيمان، أن قلب الإنسان لن يطمئن بشكل تام إلا بعبادة الرحمن، ولن تستبشر الروح إلا بذكر الله جل في علاه، وإن قوة العبادة بمثابة الجناح الذي يرفع روح الإنسان من الحضيض الأدنى، إلى الملكوت الأبهى ؛ فيهب الكينونات البشرية الصفاء والنقاء، وتنجذب القلوب الصافية إلى الروحانية بطهر وجلاء ويقين، ولا تعبر بالعبارة، ولا تشار بالإشارة، فطوبى للسامعين.

٢ – الصوم

وهو ركن هام من أركان الإسلام والعبادات، جامعة بشكل تام للرياضيات الثلاثة: البدن، والنفس، والروح. وقد وصفه شوقي في نثرية شعرية – سبحان من وهب – حيث قال عن الصوم في كتابه (أسواق الذهب): "الصوم حرمان مشروع، وتأديب بالجوع، وخشوع لله وخضوع، لكل فريضة حكمة، وهذا الحكم ظاهره العذاب، وباطنه فيه الرحمة، يستثير الشفقة، ويحض على الصدقة، يكسر الكبر، ويعلم الصبر، ويسن خلال البر، حتى إذا جاع من ألف الشبع، وحرم المترف أسباب المتع؛ عرف الحرمان

كيف يقع، وألم الجوع إذا لذع".

عن عبد الله بن شفيق قال: سألت عائشة – رضي الله عنها – عن صيام رسول الله؛ فقالت: "كان يصوم حتى نقول قد صام، ويُفطر حتى نقول قد أفطر" قالت: "وما صام رسول الله شهرًا كاملًا منذ قدم المدينة إلا رمضان" حديث صحيح.

عن عائشة قالت: "لم أرَ رسول الله يصوم في شهر أكثر من صيامه لله في شعبان، كان يصوم شعبان إلا قليلًا، بل كان يصومه كله".

عن عبد الله قال: "كان رسول الله يصوم من غرة كل شهر ثلاثة أيام، وقلما كان يفطر يوم الجمعة" صحيح.

عن عائشة قالت: "كان النبي يتحرى صوم الاثنين والخميس".

عن معاذة قالت، قلت لعائشة: أكان رسول الله يصوم ثلاثة أيام كل شهر؟ قالت: نعم.. من أية كان يصوم؟ قالت: "كان لا يبالي من أية صام".

عن علقمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها: "أكان رسول الله يخص من الأيام شيئًا؟ قالت: "كان عمله ديمة – مستمرًا – وأيكم يطيق ما كان رسول الله يطيق؟" صحيح.

أولًا: أحكام الصيام:

١ – النية:

وجوب تبييت النية في صوم الفريضة قبل طلوع الفجر، لقول النبي: "من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له" صحيح، رواه أبو داود.

٢ – وقت الصوم:

قال تعالى: **﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ﴾** البقرة ١٨٧

٣ – السحور:

قال صلى الله عليه وسلم: "فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور" رواه مسلم.

وقال: "البركة في ثلاثة: الجماعة، والثريد، والسحور" صحيح، رواه الطبراني.

ولكون السحور بركة كما ورد عاليه؛ فينبغي الالتزام بما جاء فيه اتباعًا لسنة خير الأنام الرسول الكريم عليه الصلاة وأتم السلام، القائل في وصف هذا الطعام: "هلم إلى الغداء المبارك" صحيح، رواه أبو داود.

وقال: "السحور أكله بركة فلا تدعوه ولو أن يجرع أحدكم جرعة من ماء، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين" رواه أحمد في مسنده.

وقال: "نعم سحور المؤمن التمر" صحيح، رواه أبو داود.

وكان من هدي النبي – صلى الله عليه وسلم – تأخير السحور إلى قبيل الفجر.

ثانيًا: علاقة الصوم بالأخلاق:

الصوم هو الإمساك عن المفطرات الحسية والمعنوية جميع النهار بنية.. فهو من الشرائع السماوية التي شرعها الله للأمة الإسلامية؛ لترقية الروح، وتزكية النفس الإنسانية.

قال العلامة جمال الدين القاسمي: "عُلم أن مصالح الصوم كما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفطرة المستقيمة، شرعها الله لعباده رحمة لهم، وإحسانًا إليهم، وحمية وجُنة".

وقال : "فإن مقصود الصيام حبس النفس عن الشهوات، وفطمها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية؛ لتستعد بطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين، وتضييق مجال الشيطان من العبد بتضييق مجال الطعام والشراب، وحبس قوى الأعضاء من استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كل عضو منها بكل قوة عن جماحها، وتلجم بلجامه، فهو لجام المتعبين، وجنة المجاهدين، ورياضة الأبرار المقربين، فهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال؛ فإن الصائم لا يفعل شيئًا إنما ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وملذوذاتها؛ إيثارًا لمحبة الله ومرضاته، فهو سر بين العبد وربه لا يطلع عليه سواه".

يقول رب العزة في محكم التنزيل ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ البقرة ١٨٣

يقول الرازي رحمه الله: "الصوم يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة، وانقماع – قهر – للهوى، فإنه يردع عن الأشَر والبَطَر والفواحش، ويهون ملذات الدنيا ورياستها، ويكسر شهوة البطن والفرج، وذلك جامع لأسباب التقوى".

فالتقوى التي يورثها الصوم، لها خيرات عظيمة، وسعادات جسيمة، فيها يسود الوقار، والتفرغ للشكر بالعبادة والذكر، واتقاء الله في كل قول وفعل، يقول الحق في محكم التنزيل: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ البقرة ١٩٤

ومن فوائد التقوى المرتبطة بالصيام ارتباطًا تامًّا، العلم اللدني العظيم، كما جاء في القرآن الكريم ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ البقرة ٢٨٢

ومنها المخرج من كل شدة وضيق كان، وتيسير الرزق من حيث لا يحتسب الإنسان، كما قال **الرحمن الرحيم** ﴿**وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣**﴾ **الطلاق**

ومنها تكفير السيئات، وتعظيم أجر الحسنات، كما ورد في كثير من الآيات ﴿**ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥**﴾ الطلاق

إلى غير ذلك من الخيرات المترتبة على التقوى بالذات، والتي أشار إليها رب العالمين في محكم التنزيل، فالصيام يمهد الطريق فيرتقي المسلم من حضيض الانغماس في الحياة المادية الشهوانية، إلى أوج العوالم الروحانية، فهو وسيلة للارتباط بصفات الملائكية، والانتفاض من غبار الكدارات الحيوانية.

ثالثًا: فوائد الصوم الصحية:

للصيام فوائد عديدة، واقية ومفيدة في العلاج من كثير من الأمراض بلا شك ولا جدال، منها على سبيل المثال:

١ ــ الشفاء من الأمراض المزمنة:

هناك دراسات كثيرة تؤكد أن الصوم يعالج الأمراض المزمنة كأمراض الكبد والكُلى والتهاب القولون، وغير ذلك من الأمراض المستعصية على وجه العموم، ووجد العلماء علاجًا ناجعًا لها في الصوم، وعندما تدرك أهمية الصيام في علاج هذه الأمراض الآن؛ فإنك ستصبح بلا شك أيها النبهان أكثر اشتياقًا لشهر الصوم، جنبًا لفوائد صحية ومشاعر إيمانية، تنتظرها من العام إلى العام.

٢ ــ علاج السموم المتراكمة والتلوث:

إن الدواء لكثير من الأمراض موجود داخل كلٍّ منا، فجميع الأطباء يؤكدون اليوم أن الصوم ضرورية حيوية لكل إنسان من البشرية، حتى لو كان يبدو صحيح الجسم، سليم النفس، فالسموم التي تتراكم خلال حياة الإنسان لا يمكن إزالتها إلا بالصيام، والامتناع عن الشراب والطعام.

وقد أعلن العلماء أن ما يدخل إلى جسم كل واحد منا في فترة حياته من الماء الذي يشربه، أكثر من مئتي كيلو جرام من المعادن والمواد السامة التي تشكل عناء على الجسم.. وكل واحد منا يستهلك من الهواء الذي يستنشقه على مدى أيام الحياة عدة كيلوجرامات من المواد السامة والملوثة تتراكم كل يوم، مثل الرصاص والكبريت وأكاسيد الكربون...

فتأمل معي أيها الصديق، على طريق المعرفة، الحجم الهائل الذي يدخل جسم الإنسان من معادن لا طائل من ورائها غير الأمراض التي تصيبنا بها، ولا يستطيع الجسم أن يمتصها، أو يستفيد منها إلا بالصيام، فهي عبء ثقيل يجعل الإنسان يحس بالضعف والوهن والخذلان، والاضطراب في التفكير والعقل والوجدان، فهذه السموم تُعَدُّ اليوم هي السبب غير المعلوم الذي لا يراه الطبيب عندنا في كثير من الأمراض المزمنة، فما هو الحل؟

يقول كبار الأطباء المعالجون: إن الحل الأمثل لاستئصال المواد المتراكمة الملوثة في

خلايا الجسم يكون باستخدام سلاح الصوم، الذي يقوم بصيانة وتنظيف هذه الخلايا بشكل فعال، وإن أفضل أنواع الصيام ما كان بانتظام، ونحن عندما نصوم لله شهرًا في كل عام، إنما نتبع نظامًا ميكانيكيًا هامًّا لتصريف مختلف أنواع السموم من جسم الإنسان.

٣ ــ علاج الحصيات والربو:

يفيد الصوم في الوقاية من مرض الحصى الكُلوية، وكذلك الحصيات بأنواعها البسيطة والمستعصية. ومن الحالات الكثيرة التي يرويها الأطباء، حالة لمريض قلب جاء يعاني وجود حصاة كبيرة في المثانة، ولكن الأطباء لم يستطيعوا إجراء أي عملية جراحية، فهذا أمر خطير بسبب قلبه الذي لا يتحمل التخدير، والمريض نفسه رفض الجراحة، وبحث عن العلاج والراحة فقرر الصيام؛ فإذا به بعد عدة أشهر قد شُفي تمامًا ولم يعد يشكو من أي آلام، وهذه المعلومات يؤكدها جميع الباحثين الآن.

كما تؤكد بعض الدراسات أن الصوم يعالج الربو وأمراض الجهاز التنفسي الحادة منها والمزمنة، فتزول بمجرد المداومة على الصيام، فتعالى الله عليَّ القدر والشان.

٤ ــ تنشيط جهاز المناعة:

من أهم الفوائد التي يقدمها الصيام، تنشيط نظام المناعة لجسم الإنسان. وجهاز المناعة هو بمثابة الجنود التي تحرس الجسم وتهاجم البكتريا الضارة والفيروسات، وتدافع عن البدن ضد أي جسم غريب بات مهددًا له تهديدًا تامًّا؛ ولذلك فإن الصيام يقوي هذه الجنود التي تذود عن جسم الإنسان؛ فيزيد نشاط أعضائه وكفاءتها، كسلاح فعال يدافع عن الجسم دفاع الأبطال، ويقي ويعالج الأمراض المزمنة بشكل فعال.

٥ ــ علاج الكوليسترول الضار:

إن الصيام يساعد مرضى الكوليسترول على الشفاء، فالصائم يتمتع بنفسية جيدة، وحالة من الصفاء والنقاء، تغيب فيها الانفعالات والاضطرابات، وتخيم عليه السكينة والطُمأنينة بثبات. وهذا ما ينظم عمل أجهزة الجسم انتظامًا ويجعلها أكثر كفاءة في علاج الحلل بشكل قاطع وبات، مثل تنظيم إفراز الأنسولين، وعلاج مرض السكري اللعين، وتنظيم مستوياته عند الحد السليم، وتخفيض نسبة الكوليسترول الضار في الدم، وانتظام سريانه في الأوردة والشرايين.

ويقول الأطباء إن هناك حالات كثيرة من الإصابة بضغط الدم المرتفع التي تصيب الإنسان، لا يعالجها إلا الصيام.

٦ ــ علاج الضغوط النفسية:

للصيام قدرة فائقة على علاج الاضطرابات النفسية القوية مثل الفصام، حيث يقدم الصيام للدماغ وخلايا المخ استراحة جيدة طوال اليوم. في نفس الوقت الذي يقوم فيه بتطهير خلايا الجسم من السموم، وهذا ينعكس إيجابًا على استقرار الوضع النفسي عند الصائم.

حتى أننا نجد كثيرًا من علماء النفس الآن يعالجون مرضاهم النفسيين بالصيام فقط، وقد حصلوا على نتائج باهرة وناجحة في علاج الأمراض النفسية المزمنة، بالذات مرض الفصام والاكتئاب والقلق والإحباط.

إن الصيام يحسن قدراتنا على مواجهة المصاعب الحياتية والإحباطات المتوالية، فما أحوجنا في هذا العصر بالذات إلى العلاج الفعال اليوم، المتمثل في الصوم، تلك العبادة الروحية التي تحسن النوم وتهدئ الحالة النفسية.

٧ ــ تنشيط الدماغ والوقاية من الخرف:

يقول البروفيسور هانزديتليف فاسمان (مدير قسم جراحة الأعصاب في مستشفى مونستر الجامعي): "إن الصوم من وقت لآخر مع التغذية الصحية يعد منشطًا للمخ، وأن الصوم يحسن وظائف المخ، وأن الأبحاث التي تجرى في الدول الإسلامية التي يصوم مواطنوها شهر رمضان تكشف عن فوائد الصيام للإنسان، وأن الصوم يلعب دورًا كبيرًا في تنشيط خلايا الدماغ ويجعلها تعمل بكفاءة أكبر".

وهنا نتوقف لنتذكر تعاليم ديننا الحنيف، التي سبقت علماء الغرب بهذا النصح اللطيف، وقد أكد المصحف الشريف على عدم الإسراف في الشراب والطعام، وهو ما يؤكده علماء الغرب والشرق الآن.

يقول الحق العظيم في القرآن الكريم **﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾** الأعراف ٣١

فهذه الآية تكفي للوقاية من جميع الأمراض، التي سببها الغذاء غير الصحي والدسم جدًّا المعتاد، وقد قال العزيز الوهاب في محكم الكتاب **﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ**

تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ١٨٤

ونتذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام، لم يكن يكتفي بصيام رمضان، بل كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، ويأمر بذلك على الدوام، وقد ثبت أن جسم الإنسان في حاجة لاستراحة من الشراب والطعام، بين الحين والحين، أفلا نقتدي بنبينا الرحيم؟

فالصيام كما فهمنا خير الأنام – عليه الصلاة وأتم التسليم – في قوله البليغ: "الصوم جُنَّة" فهو وقاية وستر، يقينا من شر الأمراض في الدنيا، ويقينا من حر جهنم يوم القيامة.

فاللهم تقبل صيامنا وقيامنا، وأجرنا من النار، برحمتك يا أرحم الراحمين.

من الطب النبوي: الحجامة

وهو طب نبوي أشمل ساطع، أوصى به الرسول في كثير من المواضع؛ فقال: "خير ما تداويتم به الحجامة"، ولقد احتجم خير الأنام عليه الصلاة والسلام في مواضع كثيرة، أهمها على سبيل المثال واليقين: منطقة الكاهل بين الكتفين والأخدَعَان جانبا العنق، وهما من المناطق التي اهتمت بشكل رئيس منظمة الصحة العالمية في تقنينها الحديث للعلاجات الطبية، بنظام القوى المغناطيسية.

فالحجامة كوسيلة وقائية وعلاجية بشكل تام، تطل برأسها علينا الآن، بشموخ السبق في هذا المجال؛ لأن العرب في أمريكا وأوربا وفي كثير من الأوطان والبلاد، توسعوا في استخدامها كطريقة ناجحة في التداوي والعلاج.

وأصبح لها نظرياتها الغربية والشرقية، وأصبحت قياسات العلاج بالحجامة تندرج تحت القياسات العلمية التخصصية، مثل قياسات الطاقات الضوئية الدقيقة، ومعاملات التجمع والانتشار الضوئي للخلايا الصحيحة والمريضة.

وأصبحت الحجامة الآن هي الطريقة الوقائية بالذات لعلاج المرض قبل حدوثه بسنوات، فضلًا عن استخدامها المعتاد كطريقة من طرق العلاج، بل هي الرؤية المستقبلية بما يسمى علاج (الأمراض الفسيولوجية).

فالحجامة تتوافق تمامًا مع قواعد (العلاج الإنساني الحديث) ومع الإمكانيات العبقرية للخلية وعقلها المفكر فيه للحمض النووي (DNA)

إن العلاج بالحجامة هو أحسن وسيلة للتداوي المبكر وتنظيف الخلايا، وهو ما يسمى في الغرب بـ (فائق الوقاية).

فهل خطر على بال أحد أن الرسول الطبيب الحبيب، طالب أمته وأشار إليها، وشدد عليها منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، بالتداوي بأسلوب يُعَدُّ الآن رؤية جديدة حضارية، ورؤية مستقبلية للوقاية من الأمراض المستعصية؟

ولأن الحجامة في عملها نظام لا بد أن يتوافق مع بروتوكول سنة خير الأنام – عليه أفضل الصلاة وأتم السلام – وجب الاهتمام التام باختيار من سيقوم بها، فلا يجوز أن نطلب إجراءها من شخص يجهل العمل وفق طرائقها المرعية، وأصولها النبوية.

إن توافق السنة المحمدية مع العلوم الطبية الحديثة الآن، يضعنا في موضع الفخر

والاعتزاز بدين الإسلام، الذي يحرص على صحة النفوس والأرواح والأبدان.

فطبيبنا وحبيبنا محمد عليه الصلاة والسلام عندما يأمرنا بالحجامة؛ علينا بالطاعة والانصياع التام.

يقول الرحمن الرحيم ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ الأنفال ٢٤

﴿**لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ التوبة ١٢٨

﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ الحشر ٧

قال لنا رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: "خير ما تداويتم به الحجامة" أخرجه الشيخان والنسائي عن أنس رضي الله عنه.

وقال: "إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقُسْط البحري، أي: عود الهند" أخرجه البخاري عن أنس.

وقال سلمى خادمة رسول الله: "ما كان أحد يشتكي إلى رسول الله وجعًا في رأسه إلا قال له احتجم".

قال رسول الله: "نعم الدواء الحجامة تذهب الدم وتجلو البصر وتخفف الصلب" متفق عليه.

قال رسول الله: "الحجامة تنفع من كل داء إلا الهرم فاحتجموا" أخرجه البخاري ومسلم، والديلمي عن أبي هريرة.

التطبيق:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كان رسول الله يحتجم ثلاثًا، واحدة على كاهله – ما بين الكتفين – واثنين على الأخدعين – عرقين على جانبي العنق، والأخدع شعبة من الوريد" أخرجه البخاري ومسلم.

واحتجم وهو محرم من شقيقة كانت به، والشقيقة هي الصداع النصفي. أخرجه البخاري.

واحتجم رسول الله من أثر السم في طعام اليهودية.

قال رسول الله: "ما مررت ليلة أسري بي بملأ من الملائكة إلا كلهم يقول لي: يا محمد، عليك بالحجامة" أخرجه ابن ماجة عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وقال: ضعيف.

وقال رسول الله: "ولقد أوصاني جبريل بالحجم حتى ظننت أنه لا بد منه"

وفي حديث آخر ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد عن صهيب قال: رواه الطبراني ورجاله ثقات: أن النبي قال: "عليكم بالحجامة في جوزة القَمَحْدورة – نقرة القفا – فإنه دواء من اثنين وسبعين داء"

ولعلك تلاحظ صديقنا القارئ الكريم أن اهتمام الغرب بتراثنا الطبي العظيم، فاق اهتمام الكثيرين من المتشدقين بالعلم الغربي، واللاهثين خلف ما يصدرونه لنا من بضاعتنا التي أهملنا الاهتمام بها، والعمل على إحيائها.

ومن عجب أن يتم الآن إنشاء معاهد متخصصة في كثير من بلدان الغرب لدراسة العلاج بالحجامة، في الوقت الذي ما زال البعض عندنا مترددًا فيها ومتهيبًا لها.

فيا رفيقنا في رحلتنا الإيمانية، تأمل ما ينتظرنا من أجر بشرنا به خير البرية في قوله: "من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي؛ كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئًا".

فهذه السنة الشافية الوافية الكافية من كثير من الآلام والأمراض، نرجو من الله أن يكون حديثنا عنها وسيلة مجدية من وسائل الوقاية والعلاج، وأن ننال بإحيائها ما وعدنا به من أمر بها وشدد عليها، ففي إحياء سنة الحبيب إحياء للأمل من جديد، لمن يعانون شدةَ الألم واليأس الشديد.

فعود حميد إلى الطب النبوي القديم الجديد، الذي أثبت القريب والبعيد، العدو والصديق بكل تأكيد أنه الطب الناجح المفيد..

فسبحان الله الحكيم الودود الحميد المجيد الذي بعث بالحق رسوله الأمين المبعوث رحمة للعالمين، الموصوف في محكم التنزيل **﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ النجم**

عزيزي القارئ المحب لرسول الله – عليه الصلاة وأتم التسليم – بعد أن تعرفنا على الشمائل المحمدية، واستحضرنا صورة الحبيب الشريفة البهية، وما جاء به الرسول من المنهج الرباني، والفيض النوراني، فهو قادر على إيقاظ الفطرة النقية، وإشعال أشواق المحبة الإلهية، ونقل الرأي السعيد الموفق إلى المراتب العالية. فما أبهى الاقتداء بالرحمة المهداة، والنعمة المسداة، وبما جاء فيها من أشياء مفيدة! أثبتتها أبحاث علمية جديدة بطريقة صريحة أكيدة، وقد أوردنا جانبًا منها فيما تيسر من مساحة، متمنين أن تحقق السعادة والراحة والأمن والأمان...

فيا رفيقي على طريق الخير والإيمان، أنتقل بك الآن إلى واحة من واحات صحابة خير الأنام، في باب بعنوان: "بطولات شهدتها الغزوات".. فهيا بنا إلى هناك..

الباب الثالث

بطولات شهدتها الغزوات

لعلنا نأخذ الدروس والعبر، من سيرة صحابة خير البشر، الذين شهدوا الغزوات، وسجلوا أروع البطولات؛ فنتعظ ونحن في محنتنا اتعاظ المتفكرين المتدبرين لأمر الدنيا والدين؛ فقد عشنا ثورات عديدة تحاول التغيير لأفضل.

وها نحن نحيا في تخبط وظلام، وفرقة وانقسام، وكان حريًّا بنا أن نوحد الصفوف على كلمة سواء، وأن نحقق للمجتمع الأمن والأمان، والرفاهية والاستقرار، إلا أن خلو الساحة من أولئك الأبرار، وغياب الشخصيات ذات النيات الحسنة السليمة، والمواقف المخلصة الحكيمة، المؤهلة لنصرة الحق والقيم، المخلصة للدين والوطن؛ أفسح المجال للعديد من المؤامرات والفتن، التي تُكتشف يومًا بعد لآخر.

إننا نبحث عن عظماء أتقياء نلتف حولهم، وندافع عنهم، ونقتدي بهم، ونتعلم منهم. وها هم في تاريخنا المجيد، القريب والبعيد، يبرزون بتضحياتهم وإصرارهم الفريد على نصر الحق، والدفاع المستميت عن دين الإسلام العظيم؛ فضَحَّوْا بأموالهم وأرواحهم في سبيله، وجاهدوا حق الجهاد لنصرته وإعلاء رايته في كل مكان، إنهم أُسْدُ الميدان، ضحوا بدمائهم وأرواحهم، وتمزقت أجسادهم؛ فكان كل همهم أن يسلموا الراية مرفوعة خفاقة لمن بعدهم، في شجاعة وجسارة واستبسال..

إنهم رجال جاءوا إلى الحياة في أوانهم المرتقب، ويومهم الموعود؛ ليجددوا القيم الروحية ما بها وما لها، ويعيدوا إلى الحياة شبابها وصوابها.

جاء هؤلاء الرجال مع رسولهم الكريم، مبشرين وناسكين، مستمسكين بيقين لا يتزعزع، وإيمان لا يفتر، وبطولات لا تتقهقر، مصممين بعزم أكيد على تحرير البشر أجمعين من أغلال الكفر والفساد والوثنية، والأخذ بأيديهم نحو دين الإسلام، حيث الأمن والأمان والمشاعر النورانية..

فكيف دمدموا على العالم القديم بإمبراطورياته في صولجانها، وبلدانه في شركها وغيها، وإصرارها على الباطل ومكابراتها وعنادها؟ وكيف استطاعوا في سرعة الضوء الجديد، أن يضيئوا الضمير الإنساني بحقيقة التوحيد، ويكنسوا إلى الأبد وثنية القرون الغابرة؟ إنها لمعجزة محيرة أمام من يرى بعينه القاصرة، قلة من المسلمين تنتصر على كثرة كافرة!

لكنَّ معجزاتهم الحقة، تتمثل في تلك القدرة النفسية، والسلوكيات المحمدية، التي صاغها لهم خير البرية؛ فكانوا النماذج المثالية في التطبيق الحقيقي على طريق الدعوة

الإسلامية، معتصمين بالله، مقتدين برسوله الكريم، موقنين بالنصر المبين من رب العالمين، ولو بعد حين!

ولنقترب الآن في غبطة وخشوع، من جموع هؤلاء الرجال الأبطال؛ لنشاهد كتائب الحق وهي تطوي عالم الظلم والقهر، متحملة أعباء المسئولية الإيمانية، مخلصة في التضحية من أجل التمسك بعقيدتها الإسلامية.

ولأن عدد هؤلاء الأبطال في ذلك العصر قد يفوق العد والحصر؛ فقد اكتفينا في هذا الفصل، بغيض من فيض رياض العطاءات، ومشاهد من تلك المواقف والبطولات.

فهلمَّ قارئي الأريب، لزيارة روحية في ضيافة الحبيب عليه الصلاة والسلام، وصحبه الكرام.

مصعب بن عمير

(أول سفراء الإسلام)

هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي بن كلاب.

إنه مصعب الخير والوفاء، أسطورة من أساطير الإيمان والفداء، هو لؤلؤة مكة، والفتى المدلل فيها، قال في ذلك سيد الأنبياء: "ما رأيت بمكة أحسن لِمَّة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير".

الذي تنازل عن ذلك كله بنفس راضية مرضية، في سبيل نصرة خير البرية؛ فقد تحول حالة بعد الإسلام من حال إلى حال، فارتدى بردة مرقوعة بفرو، فلا غرو أن يتأثر رسول الله، ويبكي عندما رآه، لِمَا كان فيه من نعمة تركها، وفضل نعمة الإسلام عليها وعلى غيرها.

وقد كان أول سفراء الإسلام، والسابقين إليه، والمضحين من أجله، والحريصين عليه؛ فقد أسلم ورسول الله في دار الأرقم، وكتم إسلامه عن أمه وقومه خوفًا، فكان يذهب إلى

رسول الله سرًّا، حتى رآه في صلاة عثمان بن طلحة العبدري؛ فأعلم أهله وأمه أنه تبع النبي؛ فحبسوه وظل على هذا الحال، إلى أن فضَّل التَّرْحَالَ مهاجرًا إلى الحبشة، ثم عاد من الحبشة إلى مكة، ثم هاجر إلى المدينة بعد العقبة الأولى؛ ليعلم الناس القرآن، ويصلي بهم إمامًا، وهو أول من جمَّع الجمعة بالمدينة، ومن حينه يسمونه المقرئ، وقد أسلم على يده أُسَيْدُ بنُ حُضَيْر، وسعد بن معاذ.

فهيا بنا لنعيش لحظات إيمانية، مع هذه الشخصية الإسلامية، ونرى كيف كان يؤدي دوره الهام، بإخلاص وتفانٍ كسفير للإسلام، متمتعًا بحكمة وروية تعلمها من خير البرية؛ فأثبت نجاحه كداعية إلى الله، ومبشرًا بهذا الدين العظيم، وأنه كرسوله الكريم، ليس عليه إلا البلاغ والنصح الأمين.

وقد تعرض مصعب بن عمير في تنفيذ مهمته، وأثناء قيامه بأداء رسالته، وتوجيه دعوته، لمواقف عجيبة وغريبة، مثل التي فاجأه بها في المدينة أسيد بن حضير سيد بني عبد الأشهل قبل أن يسلم ويشهد.. فقد فاجأه شاهرًا حربته، ناويًا قتله أو إثنائه عن دعوته، مغتاظًا من هذا الذي جاء يفتن قومه عن دينهم، ويدعوهم لهجر آلهتهم، تلك الآلهة التي يعرفونها، ولا يؤمنون بغيرها.

فلما رأى المسلمون الذين كانوا يجالسون "مصعبَ بن عمير" حضور أسيد بن حضير غاضبًا ومتحفزًا؛ انتابهم الخوف والفزع، لكنَّ مصعب الخير ظل ثابتًا ولم يجزع، بل بقي وديعًا متهللًا كما كان يفعل أسوته الحسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، مع أعدائه من الكفار والأعراب الغلاظ تمامًا بتمام.

فقال مصعب في هدوء واتزان، وسكينة واطمئنان: "أولا تجلس فتستمع؟ فإن رضيت أمرنا قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره".

فما كان من أسيد الأريب العاقل إلا أن قال: "أنصفت".. وألقى حربته بالأرض وجلس بالمكان يصغي باهتمام.

فلك يكد مصعب يفسر الدعوة ويقرأ القرآن، حتى أخذت أسارير أسيد تبرق وتشرق وتتغير من حال إلى حال، مع مواقع الكلام، ولم يكد مصعب يفرغ من حديثه إليه، حتى هتف به أسيد بن حضير ومن معه قائلًا: "ما أحسن هذا القول وأصدقه! كيف يصنع من يريد أن يدخل في هذا الدين؟"

فقال له مصعب: "يطهر ثوبه وبدنه، ويشهد أن لا إله إلا الله".

فغاب عنهم أسيد بن حضير قليلًا، ثم عاد يقطر الماء الطهور من شعر رأسه، ووقف يعلن أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

فسرى الخبر كالبرق في كل مكان، وجاء سعد بن معاذ فأصغى لمصعب فاقتنع وأعلن إسلامه، ثم تلاه سعد بن عبادة وغيرهم، وتمت النعمة بإسلامهم، وأقبل أهل المدينة بعضهم على بعض يتساءلون: إذا كان أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة قد دخلوا الإسلام؛ ففيم تخلفنا الآن؟ هيا إلى مصعب فلنؤمن معه بلا تباطؤ أو توانٍ.

هكذا نجح مصعب بن عمير كأول سفير للرسول الكريم، نجاحًا منقطع النظير. وتمضي الأيام على خير، ويهاجر رسول الله إلى المدينة بعد أن انفجر حقد قريش عليهم، ومواصلة الكيد لهم والتنكيل بهم، ومطاردتهم الظالمة لهم؛ فتقوم غزوة بدر لتفقد قريش صوابها، ثم غزوة أحد بعدها، حيث يعد المسلمون أنفسهم، فيقف الرسول وسط الصفوف بينهم ، ليختار حامل الراية منهم، ويقع الخيار على أحد المسلمين الأبرار: مصعب بن عمير، ليحمل اللواء.. وفي أثناء المعركة التي كاد يتحقق فيها النصر على الأعداء، يخالف المسلمون أمر الرسول الكريم فيغادرون مواقعهم بعد أن رأوا المشركين ينسحبون منهزمين.. لكن، سرعان ما يفاجأ المسلمون بفرسان قريش تغشاهم من أعلى الجبل على حين غِرَّة مستغلين ثغرة؛ فسادت الفوضى والذعر بين صفوف المسلمين، وقد ركز الأعداء على خاتم الأنبياء لينالوه بقضاء؛ فأدرك مصعب بن عمير الخطر الغادر؛ فرفع اللواء عاليًا وأطلق تكبيرة في وجه كل كافر، ومضى يصول ويجول ، وكل همه أن يشغل أنظار الأعداء عن الرسول، حماه بنفسه، وظل يقاتل وحده وكأنه جيش غزير، يده تحمل الراية وترفعها بحب وإيمان، ويد تضرب بالحسام.. وهيا بنا نرى مشهد الختام، الذي يرويه لنا الرواة الأعلام؛ فيقول ابن سعد في الطبقات الكبرى – المجلد الثالث ص ٨٥ ط دار التحرير:

"أخبرنا إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدري عن أبيه فقال: حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد، فلمَّا جال المسلمون ثبت به مصعب، فأقبل ابن قميئة وهو فارس من قريش فضربه على يده اليمنى فقطعها، ومصعب يقول: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل"، وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنا عليه؛ فضرب يده اليسرى فقطعها، فحنا على اللواء وضمَّه بعضديه إلى صدره وهو يقول: "وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل"، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه واندقَّ الرمح، ووقع مصعب وسقط اللواء.

وقد وقف رسول الله على مصعب وهو منجعفٌ على وجهه يوم أحد شهيدًا، فتلا قوله تعالى: ﴿**مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِنۡ شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا**﴾ الأحزاب

وأقبل على الناس ، وقال: "أيها الناس، ائتوهم فزوروهم وسلموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه السلام".

ومات مصعب شهيدًا ، ولم يترك شيئًا إلا ثوبًا ، إذا غطوا به رأسه خرجت قدماه، وإذا غطوا به قدميه خرج رأسه؛ فقال رسول الله: "اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجليه من نبات الإذخر" ثم ألقى رسول الله في أسى نظرة على بردة ابن عمير التي كفن فيها فقال: "لقد رأيتك في مكة وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمة منك، ثم هأنت ذا شعث الرأس في بردة"

السلام عليك يا مصعب الخير. السلام عليك يا لؤلؤة مكة. السلام عليك يا زينة شباب قريش وعطرها الفواح. السلام عليك يا سيد الشهداء. السلام عليكم يا معشر الشهداء، والسلام عليكم يا أحبة الله ورسوله وصفيه وخليله خاتم الأنبياء.

حبيب بن عاصم

(أسطورة فداء وحب)

هو حبيب بن زيد بن عاصم الأنصاري الخزرجي، وهو من بني مازن بن أبي النجار، وهو الذي أرسله رسول الله إلى مسيلمة الكذاب الحنفي صاحب اليمامة، موقع الرياض بالسعودية الآن.

وحبيب مؤمن عريق الإيمان؛ فقد جرى الإيمان في أصلابه وترائبه منذ كان، فأبوه وأمه نسيبة بنت كعب وخالته، بايعوا خير الأنام في العقبة الثانية بيعة الإسلام.

وذات يوم شهد جنوب الجزيرة العربية كذابين يدعيان النبوة، وهما: الأسود بن كعب العنسي بصنعاء، والثاني هو مسيلمة الكذاب.

خرج مسيلمة الكذاب من اليمامة، وفوجئ رسول الله بمبعوث أرسله الكذاب يحمل كتابًا يقول فيه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك.. أما بعد، فإني قد أُشْرِكْتُ في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريشًا قوم يعتدون.

فدعا رسول الله أحد أصحابه الكاتبين، وأملاه رده على مسيلمة زعيم الكذابين: "بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين".

وحمل مبعوث مسيلمة رد الرسول الذي زاد مسيلمة ضلالًا وإضلالًا، وأشعل في قلبه حقدًا وغلًّا ونارًا.

ومضى الكذاب ينشر إفكه، وازداد أذاه بالمسلمين؛ فرأى الرسول الكريم أن يبعث إليه برسالة تصحح له ما فاته، وينهاه فيها عن حماقاته؛ فاختار حبيب بن زيد للسفر إلى هذا الكاذب العربيد، والقيام بتلك المهمة؛ فانطلق حبيب بكل همة فرحًا بتلك المهمة رغم ما فيها من مخاطر وصعاب، ممنيًا النفس بأن يهتدي قلب مسيلمة فينال الأجر والثواب.

وصل حبيب إلى تلك الضالة، وقرأ مسيلمة الرسالة؛ فازداد ضلالًا على ضلال، وأمر بسفك دم حبيب في الحال، فمسيلمة هو دعي أفاك، سفاك لدماء مبعوث رسول الله،

وهذا الفعل حرَّمَه العرب وجرَّموه بغير استثناء.

فهيا معًا نرى موقف حبيب وعظمته، وصموده وبطولته مع عدو الله مسيلمة الكذاب:

جمع مسيلمة الكذاب قومه من جديد، وأمر بحضور مبعوث رسول الله حبيب بن يزيد، وهو يحمل آثار التعذيب، ظانًّا أنه سيرضخ لترهاته، ويعلن إيمانه بكذبه وادعاءاته؛ لينجو بحياته من الموت الأكيد، فيزداد يقين المخدوعين فيه.

قال مسيلمة لحبيب: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟

قال حبيب: نعم، أشهد أن محمدًا رسول الله.

فكست الصفرة والخزي والعار وجه مسيلمة الكذاب الغدار، وعاد يسأله من جديد: وتشهد أني رسول الله؟

فأجاب حبيب في سخرية قاتلة: إني لا أسمع شيئًا.

فشعر الكذاب مرة أخرى بالخزي والعار، وتحول صفار وجهه إلى سواد؛ فقد فشلت خطته، وذهبت هيبته أمام المؤمنين بكذبته؛ فماج كالثور وهاج، ونادى جلاده ثم نادى؛ لينخس جسد حبيب بين سيفه، ثم راح يقطع جسده قطعة قطعة، وبضعة بضعة، وعضوًا عضوًا، والبطل العظيم يهمهم ويقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله حتى فارق الحياة، مستشهدًا في سبيل الله، وإعلاء كلمة مولاه الكريم، ودينه العظيم، في ثبات منقطع النظير؛ فحقق نصرًا غاليًا على هذا الكذاب الأثيم، ثمنه روحه التي كرمها الله بجنة النعيم.

فلمَّا بلغ رسول الله هذا النبأ الأليم، نبأ استشهاد مبعوثه حبيب بن يزيد؛ اصطبر لحكم ربه، وهو يرى بنور الله رؤية العين، المصير المحتوم لهذا الكذاب اللعين. ودارت الأيام، وجاءت الموقعة الخالدة في تاريخ الإسلام والمسلمين: موقعة اليمامة، تلك الموقعة التي جهز لها أبو صديق جيش الإسلام على ما يليق، في الوقت الذي أعد فيه مسيلمة الكذاب أضخم عدة وعتاد؛ إلا أنه انهزم في هذه الموقعة وقتل شر قتلة؛ ليكون عبرة لمن بغى وغدر وتكبر، وسقط أتباعه كالعهن المنفوش مهزومين منكسرين، وارتفعت رايات الإسلام والمسلمين عزيزة ظافرة، ووقفت أم حبيب ترى وجه ولدها حبيب بن يزيد يملأ الزمان والمكان، وعلى رايات الإسلام الخفاقة المنتصرة، ترى وجهه ضاحكًا ؛ فتغدو فرحة مستبشرة.

إنك حقًّا حبيب، وأسطورة فداء، وسيد شهداء المسلمين، فطِبْ نفسًا في جنة النعيم، مع الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

بلال بن رباح

(مؤذن الرسول)

بلال بن رباح الحبشي.. أبو عبد الله، صحابي جليل، كان عبدًا ذليلًا من عبيد قريش المشركين. أعلن إسلامه فعذبه سيده أمية بن خلف عذابًا أليمًا، فابتاعه أبو بكر الصديق وأعتقه لله رب العالمين.

اشتهر بصبره على التعذيب، وقوله العجيب: أحد أحد، وقد كان صوته من أجمل الأصوات، فكلفه رسول الله بمهمة الأذان للصلوات..

وكان بلال بن رباح مؤذن الرسول، شديد السواد، نحيف العود، مفرط الطول، ويكنى بأبي عبد الله، وقيل بأبي عبد الكريم، وقال بعضهم يكنى بأبي عمرو.

وقد شهد بدرًا والمشاهد كلها مع خير الأنام، وكان من السابقين إلى الإسلام، وأنه ما كان يسمع كلمات المدح والثناء توجه إليه؛ إلا ويحني رأسه من طول، ويغض طرفه، وتسيل دموعه ويقول: إنما أنا حبشي، كنت بالأمس عبدًا.

فهيا بنا قارئي الكريم نستعيد مواقف وأحوال بلال بن رباح مؤذن الإسلام، وصادق الإيمان، والمتحمل في سبيل عقيدته ما تنوء بحمله الجبال من عذاب وأهوال.

وبهذه المواقف المروية، التي سيأتي ذكرها الآن، يتضح للعيان عمق هذا الإيمان الذي تغلغل في تلك القلوب النورانية التي أضاءت بالأفعال لا بالأقوال طريق الهداية الإسلامية، فتبوأت المكانة والمكان الذي تستحقه في الأرض والسماء، منذ عهد خاتم الأنبياء وإلى الآن.

إسلام بلال وتحمله العذاب:

أسلم العبد بلال بن رباح على يد رسول الله الكريم، وظل كاتمًا إسلامه خشية مولاه أمية بن خلف اللعين، وقومه المشركين، لكنه ما لبث بعد حين أن دخل الكعبة وفيها ما فيها من أصنامها، وقريش كانوا في ظهرها؛ فجعل يبصُقُ عليها ويقول ساخرًا من

عبادتهم لها: "خاب وخسر من عبدكُنَّ".

فدارت الأرض برءوس أسياده من بني جُمَح المشركين، الذين يملؤهم الغرور والكبر والخوف على مكانتهم، وضياع هيبتهم عند سماع خبر إسلام عبد من عبيدهم، ويقول فيهم أمية بن خلف اللعين: إن شمس هذا اليوم لن تغرب إلا ويغرب معها إسلام هذا العبد الآبق!

ولكنَّ شمس الإسلام لم تغرب عن بلال كرغبة أمية، بل غربت عن الأصنام والعبادة الوثنية..

فها هم يقبلون عليه، عاقدين العزم على إثنائه عن دينه الجديد، فيبدءون معه رحلة التعذيب، يخرجون به في الظهيرة التي تتحول الصحراء فيها إلى جهنم قاتلة، فيطرحونه على حصاها الملتهب وهو عريان، ثم يأتون بحجر متسعر كالحميم ينقله من مكانه بضعة رجال، ويلقون به فوقه، ويصيح به جلادوه: اذكر اللات والعزى؛ فيجيبهم: أحد أحد..

وإذا حان الأصيل أقاموه، وجعلوا في عنقه حبلًا، ثم أمروا صبيانهم أن يطوفوا به جبال مكة وطرقها، وبلال لا يقول سوى: أحد .. أحد.

قال عمار بن ياسر: "كلٌّ قال ما أرادوا – يعني أن المستضعفين المعذبين قالوا ما أراد المشركون – غير بلال" ومر به ورقة بن نوفل وهو يعذب ويقول أحد أحد؛ فقال: "يا بلال أحد أحد، والله لئن متَّ على هذا لأتخذن قبرك حنانًا، أي: بركة".

وعندما يأتي الليل يساومونه كالشياطين، على أن يقول في الصباح كلمات خير في آلهة المشركين: قل ربي اللات والعزى لنتركك وشأنك، فقد تعبنا من تعذيبك، كأننا نحن المعذبون؛ فيهز بلال رأسه في إصرار وتصميم، وعزم ويقين، ويقول: أحد أحد .. ويلكزه أمية بن خلف لكزًا، وينفجر منه غيظًا ويصيح: أي شؤم رمانا بك يا عبد السوء؟ واللات والعزى لأجعلنك للعبيد والسادة مثلًا! فيجيب بلال في ثبات ويقين، وعظمة المحب العاشق للدين: أحد .. أحد. فلقد ضرب بلال المثل للبشرية جمعاء، في صدق الإيمان والعزم على تحمل الابتلاء، في سبيل نصرة دين رب الأرض والسماء.

وتبدأ مرحلة جديدة من مراحل المساومة، يقوم بها كل من وكل إليه تمثيل دور الرفيق به، المشفق عليه، فيقول: خلِّ عنك يا أمية، واللات والعزى لن يعذب بعد اليوم، إن بلالًا منَّا، أمه جاريتنا، وإنه لن يرضى أن يجعلنا بإسلامه سخرية قريش ومسختها!

فينظر بلال إلى وجوههم وكذبهم، ويقول في هدوء يزلزل كيانهم: أحد.. أحد؛ فيعاودون التعذيب من جديد!

وذات يوم كان أمية بن خلف يضرب بلالًا بالسوط ضربًا مبرحًا، فمر عليه أبو بكر فقال له: يا أمية، ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ إلى متى ستظل تعذبه هكذا؟ فقال أمية لأبي بكر: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى. وواصل أمية ضربه لبلال، وقد يئس منه، فطلب أبو بكر شراءه، وأعطى أمية ثلاثَ أواقٍ من الذهب نظير أن يترك بلالًا؛ فقال أمية لأبي بكر: فواللات والعزى، لو أبيت إلا أن تشتريه بأوقية واحدة لبعتكه بها، فقال أبو بكر: والله لو أبيت أنت إلا مئة أوقية لدفعتها.

أعتقه أبو بكر منه، وحرره من قيوده، وانطلقا إلى رسول الله ليبشراه، فكان عيدًا سعيدًا، ونصرًا مبينًا، وخيرًا عظيمًا.

وبعد هجرة الرسول إلى المدينة واستقراره بها، شرع للصلاة أذانها، واختار رسول الله عليه الصلاة والسلام بلال بن رباح ليكون أول مؤذن للإسلام بصوته الشجي، العلي القوي، الذي يملأ أفئدة الناس بالإيمان، وهو يرفع الأذان:

"الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله"

وعاش بلال مع رسول الله يشهد معه المشاهد، ويؤذن للصلاة، ويحيي شعائر هذا الدين العظيم الذي أخرجه من الظلمات إلى النور، ومن العبودية إلى الحرية.

متذكرًا بوفاء موقف أبي بكر الصديق؛ فقد بلغ بلال بن رباح أن ناسًا يفضلونه على أبي بكر فقال: كيف تفضلونني عليه؟ وإنما أنا حسنة من حسناته!

ومن أقول عمر بن الخطاب في هذا المقام: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا (بلالًا).

ويجيء فتح مكة، ويدخل الرسول الكعبة ومعه بلال، فيأمره أن يرفع الأذان، ويؤذن بلال فيا لروعة الزمان والمكان والمناسبة!

(حدثنا قتادة عن القاسم بن ربيعة عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله: نعم المرء بلال وهو سيد المؤذنين)

وعلا شأن الإسلام وشأن المسلمين، وبلال يزداد قربًا من قلب الرسول الكريم، الذي

قال عنه المبعوث رحمة للعالمين: "أين أنتم عن بلال؟ أين أنتم عن رجل من أهل الجنة؟"

وظل بلال يؤذن للصلاة، إلى أن رحل رسول الله، وكان آخر أذان لبلال يوم وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وعندما فتح (عمر بن الخطاب) بيت المقدس، توسل المسلمون إليه أن يحمل بلالًا على أن يؤذن لهم صلاة واحدًا. ودعا عمر بن الخطاب بلالًا وقد حان وقت الصلاة، ورجاه أن يؤذن لها، وصعد بلال وأذن فبكى الصحابة الذين كانوا أدركوا رسول الله وبلال يؤذن؛ بكوا كما لم يبكوا من قبل أبدًا، وكان عمر أشدهم بكاءً.

لقد اختار بلال المرابطة في سبيل الله إلى أن يلقى ربه، وها هو يصل إلى نهاية رحلته في الحياة الدنيا، وتقول زوجته: واحزناه، فيكشف الغطاء عن وجهه وهو في سكرات الموت، ويقول: لا تقولي واحزناه، وقولي وافرحاه، ثم أردف قائلًا: غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وصحبه!

هذه قطرة من فيض أحد رجالات الرسول وصحابته الأطهار، تروي لنا صلابة العقيدة السليمة والثبات على اليقين بعزم وإصرار؛ فكان جزاؤهم الجنة مع الصديقين والشهداء الأبرار: "روى أبو هريرة أن النبي قال لبلال عند صلاة الفجر: يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة" متفق عليه.

فلنأخذ الدروس الجامعة، والعبر النافعة، من تلك الرحلة الإيمانية الرائعة التي أمضاها عبد حبشي نال ما نال، بفضل إخلاصه لدين الإسلام، فعليك السلام يا بلال في كل آن وأوان، عليك السلام يا حبيب رسول الله عليه الصلاة والسلام، عليك السلام يا حبيب الله الرحمن الرحيم.

سلمان الفارسي

(الباحث عن الحقيقة)

واسمه قبل الإسلام ، مابه بن بوذخشان، من ولد آب الملك، وأصله من منطقة أصفهان، واسمه بعد الإسلام أبو عبد الله، ويعرف بسلمان الخير، وهو مولى خاتم الأنبياء، وصحابي من الصحابة الأجلاء الأتقياء، جليل دخل الإسلام بعد بحث وعناء، وتقصى

عن الحقيقة بين العقائد والأديان؛ فقد دان بالمجوسية في فارس (بإيران) ولم يقتنع بها فرحل إلى الشام، والتقى بالقساوسة والرهبان، ولكن عقيدتهم لم تقنعه ولم تشفِ تعطشه للإيمان؛ فاستمر متنقلًا حتى وصل إلى الجزيرة العربية ثم إلى المدينة، حيث التقى بمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام؛ فاستقر يقينه، وشفى تعطشه، وارتشف من منهل الإيمان، قطرات أنعشت روحه؛ فاستقرت رحلة بحثه عن الحقيقة على شاطئ الإسلام، بكل أمان وإيمان.

وها هو سلمان الفارسي يا قارئي الكريم، يجتمع مع نفر من الأعراب فيسألهم عن نسبه الكريم، حيث يقول هذا: أنا قرشي، وذاك يقول: أنا قيسي، وذاك يقول: أنا تميمي؛ فقال سلمان الفارسي:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

تلك حقيقة من حقائق الإسلام التي علمها سلمان، وأكد عليها الرسول عليه الصلاة والسلام، حين قال: "لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب" رواه الترمذي

فالإسلام ليس دين تفاخر بالأنساب، بل دين تقوى وجهاد واجتهاد.

دور سلمان في غزوة الخندق:

في السنة الخامسة من الهجرة المحمدية، خرج نفر من زعماء اليهود بسوء نية، قاصدين مكة لتأليب الأحزاب والمشركين على الرسول الكريم والمسلمين، متعاهدين معهم على المعاونة في حرب حاسمة للقضاء قضاء مبرمًا على هذا الدين الجديد.

فشحذوا النفوس بالكراهية الثائرة، ووضعوا معهم خطة حربية غادرة، خلاصتها أن تهاجم قريشٌ وغَطَفانُ المدينة من الخارج، بينما يهاجم بنو قريظة الرسول والمسلمين من الداخل؛ ليوقعوهم بين شقيهم ويطحنوهم طحنًا، فإلى أين المفر حينئذ؟ أين؟ سيجعلونهم – بحسب زعمهم – مجرد ذكرى، أو أثرًا بعد عين..

وفوجئ الرسول والمسلمون النُّجب بجيش لجب، يقترب من المدينة في زئير مدمدم حاقد غضوب، وعدة وعتاد تفوق الموجود لدى المسلمين، وقد صور القرآن الكريم هذا

المشهد أبلغ وصف؛ فقال تعالى: ﴿**إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠**﴾ الأحزاب ١٠

لقد رأى المسلمون أنفسهم في موقف عصيب، وجمع الرسول أصحابه ليشاورهم في هذا الأمر العصيب؛ فتقدم سلمان الفارسي بما لديه من خبرة ومعرفة بفنون الحرب والقتال، منذ كان في فارس، وهو اسم له دلالة ومعانٍ؛ فألقى من فوق هضبة عالية نظرة فاحصة متأنية على المدينة كلها؛ فوجدها محصنة بالجبال والصخور المحيطة بها، بيد أن هناك فجوة واسعة يستطيع الأعداء بسهولة اقتحامها، فتقدم للرسول عليه الصلاة والسلام باقتراح هام، مفاده أن يتم حفر خندق بطريقة سليمة، بحيث يغطي جميع المنطقة المكشوفة حول المدينة.

وبالفعل بدأ المسلمون في حفر هذا الخندق المشار إليه، الذي صعق قريشًا حين أقبلت عليه، وعجزت العجز التام عن الاقتحام، وأرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، لم يستطيعوا معها إلا الرحيل، والعودة إلى ديارهم عودة خائبة فاشلة، يقول الحق جل وعلا: ﴿**وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾ الأحزاب ٢٥

لقد كان سلمان صاحب المشورة بحفر الخندق الحصين، وصاحب الصخرة التي تفجرت منها بعض أسرار الغيب للرسول الكريم، ومصير الخير المبشر للإسلام والمسلمين، فخلال حفر الخندق اعترضت صخرة عاتية معاول المسلمين لم يستطيعوا فلقها؛ فذهب سلمان إلى الرسول مستأذنًا بتغيير مسار الحفر ليتجنبوا هذه الصخرة؛ فأتى الرسول مع سلمان وأخذ المعول بيدية، وسمى الله وهوى على الصخرة؛ فإذا بها تنفلق ويخرج منها المعول وهجًا عاليًا مضيئًا؛ فهتف الرسول مكبرًا: "الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ فارس، ولقد أضاء الله لي منها قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وإن أمتي ظاهرة عليها" ثم رفع المعول ثانية وهوى على الصخرة؛ فتكررت الظاهرة وبرقت الصخرة، وهتف الرسول: "الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح الروم، ولقد أضاء لي منها قصور الحمراء، وإن أمتي ظاهرة عليها" ثم ضرب ضربته الثالثة فاستسلمت الصخرة وأضاء برقها الشديد، وهلل الرسول والمسلمون معه، وأنبأهم أنه يبصر قصور سورية وصنعاء وسواها من مدائن الأرض التي ستخفق فوقها راية الله يومًا؛ فصاح المسلمون: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله.

هذا ما حدث يوم الخندق، الذي أشار به سلمان، من مشاهد انتصار للمسلمين، ومشاهد

اندحار للمشركين؛ فوقف الأنصار يقولون: سلمان منا، ووقف الأنصار يقولون: بل سلمان منا، فناداهم الرسول قائلًا: "سلمان منا آل البيت".

لقد كان في إسلام سلمان صدق همة، وبر وتقوى، وزهد وفطنة، وهو أشبه الصحاب بعمرو بن الخطاب.

أقام أيامًا مع أبي الدرداء في دار واحدة، فوجده يقوم الليل ويصوم النهار، فكان سلمان يؤاخذ عليه مبالغته في العبادة؛ فقال له أبو الدرداء: أتمنعني أن أصوم لربي وأصلي له؟ فأجاب سلمان: إن لعينيك عليك حقًّا، وإن لأهلك عليك حقًّا، صم وأفطر، وصلِّ ونم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "لقد أُشْبِعَ سلمان علمًا".

فقد كان رسول الله يطري خلقه ودينه، وعلمه وفطنته، وتوازنه وحكمته.

وانعكس هذا التكريم على نفوس أصحاب الرسول الكريم؛ فحظي فيهم بالمنزلة الرفيعة والمكانة السامية، ففي خلافة عمر بن الخطاب جاء سلمان إلى المدينة زائرًا؛ فجمع عمر إخوانه وقال لهم: هيا بنا نخرج لاستقبال سلمان؛ فخرجوا لاستقباله جميعًا عند مشارف المدينة.

وتظل رايات الإسلام على مدى سنوات خفاقة بفضل ما تحققه البطولات من انتصارات، وكانت الأموال والكنوز تحمل إلى المدينة، وتوزع على الناس على المستويات كافة، فأين كان سلمان في هذا الخضم بالذات؟ وأين هو من هذا الثراء والرخاء الذي كان؟

أترون هذا الشيخ الجليل الجالس هناك في الظل الظليل، يضفر الخوص ويجدله بهدوء وروية، ويصنع منه مكاتل وأوعية؟

إنه سلمان! انظروا إلى ثوبه القصير الذي وصل إلى ركبتيه، فرغم عطائه الوفير الذي يصل إلى إليه، وهو مال كثير بين ٤٠٠٠ و ٦٠٠٠ درهم في العام، على نحو ما قال: "أشتري خوصًا بدرهم فأعمله، ثم أبيعه بثلاثة دراهم، فأعيد درهمًا فيه، وأنفق درهمًا على عيالي، وأتصدق بالثالث.. ولو أن عمر بن الخطاب نهاني عن ذلك ما انتهيت"

هذا سلمان، واحد من أتباع خير الأنام عليه الصلاة والسلام، الذين اقتدوا به في الصدق والتصدق، والزهد والتقشف، وتهذيب النفس بمشاعر الرضا والاطمئنان؛ فزادهم الله إيمانًا على إيمان.

فنحن أمام رجل من أصفهان، ترك بلاد البذخ والترف والمدنية وصولًا إلى الإسلام، فهو يرفض اليوم المال والثروة والنعيم.. ويصر على الاكتفاء في يومه بثلث كسبه من عمل يده.

وهو الرافض للإمارة والتعظيم، والناصح في قول الحكيم: "إن استطعت أن تأكل التراب ولا تكونن أميرًا على اثنين؛ فافعل"

إنه يهرب من الإمارة والمنصب كالمعتاد، إلا أن تكون إمارة على سرية ذاهبة إلى الجهاد.

ولنسمع جوابه وهو على فراش الموت، متهيأة روحه للقاء ربه، عندما دخل عليه سعد بن أبي وقاص يعوده؛ فبكى سلمان!

فقال سعد: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ لقد توفي رسول الله وهو عنك راضٍ!

فأجابه سلمان: والله ما أبكي جزعًا من الموت، ولا حرصًا على الدنيا، ولكن رسول الله عهد إلينا عهدًا فقال: "ليكن حظ أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب، وهأنذا حولي هذه الأساود.

قال سعد: فنظرت فلم أرَ حوله إلا جفنة ومطهرة.

فقلت له: يا أبا عبد الله، اعهد إلينا بعهد نأخذه عنك..

فقال: يا سعد، اذكر الله عند همك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت.

لقد حفظ سلمان عهد رسول الله، ومع هذا هطلت دموعه حين رأى روحه تتهيأ للرحيل مخافة أن يكون قد جاوز المدى، ليس حوله إلا جفنة يأكل فيها، ومطهرة يشرب منها ويتوضأ، ومع هذا يحسب نفسه مترفًا.

فهو لم يجعل الدنيا تملكه، ولم يجعلها مبلغ علمه، ولا كل همه، فهي دار فانية، أخذ منها زاد الإيمان في رحلته للدار الباقية عند الرحيم الرحمن.

لقد صعدت روحه الطاهرة على أجنحة الشوق للقاء الله الكريم، إذ كانت على موعد مع حبيبه الأمين رسول رب العالمين، وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلتنعم يا زاهد، يا مؤمن، يا حكيم، بأعلى الجنان، في رياض الصالحين المتقين، وحسن أولئك

رفيقًا.

لقد كان علي بن أبي طالب يصف سلمان بلقمان الحكيم، وسُئل عنه بعد موته فقال: "إنه أوتي العلم الأول والآخر، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر، وكان بحرًا لا يُنْزَف.."

معاذ بن جبل

(أعلم أمتي بالحلال والحرام)

هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي بن كعب، وهو من الأنصار، يكنى بأبي عبد الرحمن، فقيه، وعالم إمام، أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة، شهد بدرًا وأحد والمشاهد كلها مع خير الأنام، وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة الثانية من الأنصار، وقد آخى رسول الله بينه وبين ابن مسعود مؤاخاة.

فنحن أمام شخصية عالم فقيه، وحكيم نبيه، يقضي بين الناس في خلافاتهم، ويعلمهم القرآن ويفقههم في دينهم، وقد حذا حذو سيدنا سليمان في فصل الخطاب وبلاغة البيان، وقد كان يملك العقل والذكاء، وشجاعة الإقدام كسيدنا عمر بن الخطاب، ووصل في تدينه وحنفيته وإسلامه كسيدنا إبراهيم عليه السلام، فوصفوه بأنه أمة، وصدق الوصف بلا جدال.

حتى أن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وصفه فقال: "أعلم أمتي بالحلال والحرام، معاذ بن جبل".

وهو أحد الأربعة الذين قال فيهم الرسول: "خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بم جبل، وسالم مولى أبي حذيفة".

لقيه الرسول ذات صباح، فسأله: "كيف أصبحت يا معاذ؟"

قال: "أصبحت مؤمنًا حقًّا يا رسول الله".

قال النبي: "إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟"

قال معاذ: "ما أصبحت قط إلا ظننت أني لا أمسي، ولا أمسيت مساء إلا ظننت أني لا أصبح، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها غيرها، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها، وكأني أرى أهل الجنة في الجنة ينعمون، وأهل النار في النار يعذبون".

فقال له الرسول: "عرفت فالزم".

أجل، لقد أسلم معاذ كل نفسه وكل مصيره لله، فلم يعد يبصر شيئًا سواه".

سأله الرسول حين وجهه إلى اليمن: "بِمَ تقضي يا معاذ؟"

فأجابه قائلًا: "بكتاب الله".

قال الرسول: "فإن لم تجد؟"

قال معاذ: "أقضي بسنة رسوله".

قال الرسول: "فإن لم تجد في سنة رسوله؟"

قال معاذ: "أجتهد رأيي ولا ألو"

فتهلل وجه رسول الله وقال: "الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله".

فولاء معاذ لكتاب الله، ولسنة الحبيب، لا يحجب عقله عن متابعة رؤاه وعقله النجيب لتلك الحقائق الهائلة المستترة استتارًا، والتي تنتظر من يكتشفها ويواجهها بحسم، وبلا غموض أو لبس، جهارًا نهارًا.

ولعل هذه القدرة على الاجتهاد، والشجاعة في استخدام العقل بذكاء، هما الميزتان اللتان مكنتا معاذًا من هذا الثراء الفقهي الكبير، الذي فاق به أقرانه وإخوانه بكثير، حتى صار كما وصفه الرسول الخبير بصحابته، المقدر لمكانة المسلمين العاملين من أمته: "أعلم الناس بالحلال والحرام".

وها هو عائذ الله بن عبد الله، بعد أن دخل المسجد يومًا مع أصحاب الرسول، في أول خلافة عمر، فيقول: "فجلست مجلسًا فيه بضعة وثلاثون، كلهم يذكرون حديثًا عن رسول الله، وفي الحلقة شاب شديد الأدمة، حلو المنطق، وضيء، وهو أشب القوم سنًّا، فإذا اشتبه عليهم من الحديث شيء ردوه إليه فأفتاهم، ولا يحدثهم إلا حين يسألونه. ولمَّا

قضى مجلسهم دنوت منه وسألته: من أنت يا عبد الله؟ قال: أنا معاذ بن جبل.

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستشيره كثيرًا، فيدقق الفكرة ويحسن الإشارة، ويعطي العبرة بمهارة وجدارة؛ مما حدا بعمر إلى الاعتراف بفضله وبالغ حكمته وغزير علمه، فقال: "لولا معاذ بن جبل لهلك عمر".

هكذا بلغ معاذ هذه المنزلة، وتلك المكانة المتمكنة.

فهذا شهر بن حوشب يقول: "كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل؛ نظروا إليه هيبة له".

تلك الصفات التي أضفت عليه سمات الوقار وتجليات الهيبة والاحترام، لم تصبه بالغرور والكبر؛ فقد كان طيب الخلق، طلق الوجه، سخي اليد، ذهب كرمه وجوده وسخاؤه بكل ماله، راضي النفس، سمح العفو، طاهر الذمة والكف..

فقد مات رسول الله ومعاذ ما زال باليمن قاضيًا للجنود، يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، ويقيم الحدود، ويعلمهم القرآن والفقه والشرع بما حباه الحي الموجود من علم غير محدود.. ثم في خلافة أبي بكر الصديق يرجع معاذ من اليمن، وكان عمر قد علم أن معاذًا قد أصبح ثريًّا وتيسر حاله، فاقترح على الخليفة أبي بكر أن يشاطره ثروته وماله.

ولم ينتظر عمر رأي أبي بكر الصديق، بل نهض مسرعًا عبر الطريق إلى دار معاذ، وبكل ما كانت عليه لهفته الشفيقة ألقى عليه مقالته للخليفة.

لكن معاذًا رفض رأي عمر، فتركه عمرُ وانصرف بعد أن ناقشه معاذ، فهو طاهر الكف والذمة والشرف، لقد أصبح ثريًّا بالحلال دون أن يقترف إثمًا، أو يقترب من شبه، فهو أفقه من عُرف.

وفي صباح اليوم التالي، ذهب معاذ إلى عمر ليعانقه، وتفر الدموع من عينيه، وهو يعتذر إليه، ويروى عليه ما رأى: "لقد رأيت في منامي أني أخوض حَوْمَةَ ماء، أخشى على نفسي الغرق، حتى جئتَ وخلصتني يا عمر".

فنظر عمر إلى معاذ، نظرات رضا واعتزاز، وذهبا معًا إلى أبي بكر، فطلب معاذ أن يشاطره ماله؛ فقال أبو بكر: لا آخذ منك شيئًا"

فنظر عمر إلى معاذ وقال: الآن حل وطاب.

تعلم قارئي الكريم علم اليقين أنه ما كان لأبي بكر الورع أن يترك لمعاذ درهمًا واحدًا لو علم أنه أخذه بغير حق أو ظلم، وما كان عمر متجنيًا على معاذ بن جبل، بتهمة أو سوء فيمن له من قبل شهد، وإنما هو عصر القيم والمُثُل، والنموذج الفريد لمن أراد من النجب، التسابق للكمال والاقتداء بالنخب.

ونتبع هجرة معاذ إلى الشام، حيث عاش بين أهلها والوافدين عليها أيامًا وشهورًا، معلمًا وفقيهًا وقاضيًا همامًا، وما إن مات أميرها أبو عبيدة – وهو الصديق الحميم لمعاذ – حتى استخلفه عمر على الشام، وهو يقول: "لو استخلفت معاذ بن جبل فسألني ربي: لماذا استخلفته؟ لقلت: سمعت نبيك يقول: إن العلماء إذا حضروا ربهم عز وجل، كان معاذ بين أيديهم"

هذه شهادة من النبي فيه، وعُمر يستعين به فيوليه حكم الشام، حيث تُوفي بعد بضعة أشهر في طاعون (عمواس) وعمره لم يجاوز ثمانية وثلاثين عامًا!

وفي سكرات الموت تنطق حقيقة كل حي من الأحياء، في حكمة بالغة وشفافية نورانية وصفاء، معبرة عن إيمانه العظيم، وصدق اليقين، وهو يناجي ربه الكريم:

- "اللهم إني كنت أخافك، لكنني اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر".

وبسط يمينه كأنه يصافح الموت، وهو يقول: "مرحبًا بالموت، حبيب جاء على فاقِه"

قال عمر بن الخطاب: "سمعت النبي يقول: معاذ بن جبل إمام العلماء يوم القيامة".

إنها قصة رجل من أحكم الرجال، وبطل من أعظم الأبطال، الذين التفوا حول الرسول الكريم، مؤدين حق العلم والشرع والدين.

فرحمة الله عليك يا سيد الشباب، وفقيه زمانك، وقدوة حكامك ومحكوميك، يا قاضي العدل، يا ورع، يا تقي، يا حكيم.. يا من عدلت في ميزان العلم والحكمة أمة من الأتقياء الموحدين.

فلنحيي ذكراه في كل مكان وزمان، ونقتبس من نوره وورعه وهداه شعلة اليقين، التي تضيء العقل والقلب والوجدان حتى نلقاه.. بإذن الله رب العالمين.

حمزة بن عبد المطلب

(أسد الله وسيد الشهداء)

هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي...

كنيته أبو يعلى وأبو عمارة – وهما اسمان من أسماء أبنائه الخمسة – وكان أسن من الرسول بسنتين كما جاء في كتب السير.. وهو عمه وأخوه من الرضاعة، وسيد الشهداء..

فحمزة وخاتم الأنبياء كانا من جيل واحد وسن متقاربة، نشأا معًا ولعبا معًا، تآخيا معًا؛ مما حدا بحمزة إلى إدراك عظمة ابن أخيه رسول الله في كماله وصدق دعوه، فهو الأخ والصديق، وفي العمر رفيق.. ولا يفوتني هنا أن أذكر أنه كان له دور بارز في زواج النبي عليه الصلاة والسلام بخديجة بنت خويلد، وخويلد هذا جد الزبير بن العوام، وهو ما لا يتسع المقام لذكر تفاصيله.

موقف حمزة مع الرسول ضد قريش:

كان سيدنا حمزة بن عبد المطلب يتمتع بقوة الجسم، ورجاحة العقل، وقوة الإرادة، ومكانة عظيمة عند العرب وشهرة وسيادة، وكان يرقب عن كثب وهدوء وأناة، ما جاء به ابن أخيه رسول الله عليه الصلاة والسلام، من دعوة للإسلام، ويفكر فيها بإمعان دون إعلان.

وعند الكعبة، جلس حمزة جلسته المعتادة، فوجد نفرًا من قريش أشرافًا وسادة يقولون عن محمد ما لم يعرفه فيه؛ فقد وصل حقدهم على دعوة ابن أخيه، وخشيتهم منه، إلى حد رغبتهم في الفتك به، والانقضاض عليه دون هوادة.

ضحك حمزة من أحاديثهم، ورماهم بالمبالغة في كلامهم، وخشيتهم وانفعالهم، ولكن أبا جهل أكد لجلسائه الأكيد التام، أن حمزة أكثر الناس علمًا بخطر هذا الإسلام الذي يدعو إليه محمد – عليه الصلاة والسلام – فحمزة يهون على قريش الأمر حتى تنام، ويظهر أمر ابن أخيه بتمام.

كان حمزة مثقل الرأس، ممعن الفكر في أمر ابن أخيه، وهو يرقب موقف هؤلاء

المحرضين عليه، فيراه ثابت الجأش متفانيًا في دعوته إلى الإسلام، وقريش تعاني من التحريض عليه والتشكيك والاتهام، وحمزة مصدق للرسول بشكل لا يقبل الجدال؛ لأنه يعرفه كما يعرف نفسه تمامًا بتمام.

خرج حمزة من داره ذات يوم ليمارس الصيد، وهي هواية له ومهارة فائقة فيها، وعند عودته من جديد، توجه إلى الكعبة ليطوف بها كالمعتاد، فقابلته في الطريق خادمة لعبد الله بن جدعان، تخبره بأمر هام، فقالت بلهفة واهتمام:

يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفًا من أبي الحكم بن هشام (أبو جهل) وجده هناك جالسًا فآذاه وسبه، وبلغ منه ما يكره.

فمد حمزة يمينه إلى قوسه، وثبته فوق كتفه، وسار مسرعًا نحو الكعبة، باحثًا عن أبي جهل (أبي الحكم بن هشام) فوجده وحوله نفر من سادة قريش يجلسون في مكان، وفي هدوء رهيب وصمت تام، تقدم حمزة من أبي جهل – عدو الله – فاستل قوسه وهوى بها على رأسه فشجه وأدماه، وصعق الجالسون من الدهشة، وبدت على وجوههم علامات تعجب واستفهام؛ فأجاب حمزة صائحًا بأبلغ بيان في وجه أبي جهل، المسيء لخير الأنام:

- أتشتم محمدًا وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فرُدَّ إليَّ إن استطعت.

فوقعت كلمة حمزة صاعقة على الجميع:

- أأعز فتيان قريش شكيمة يُسلِم!

إنها الطامة التي لا تملك لها قريش دفعًا بحال من الأحوال، فإسلام حمزة سيدفع بكثير من الصفوة إلى الإسلام؛ مما يزيد قوة الدعوة إلى هذا الدين، مقابل اندحار فلول الشرك والمشركين.

وها هو المشهد الآن يوضح للعيان، بداية النهاية لأعداء الإسلام:

أبو جهل غارق في دمه، ورأسه مشجوج، والجميع في ذهول من إعلان حمزة إسلامه!

ترك حمزة الجموع، وهم في ذهول وخضوع، وعاد إلى داره بخطوات ثابتة، وبأس شديد، وجلس يفكر ويقلب خواطره من جديد، كيف أعلن إسلامه في لحظات حمية وغضب وانفعال، فأحدث في نفوس قريش هذا الزلزال، ولكنه أخذ يعيد التفكير في روية، كيف غادر دين آبائه وقومه الذي كان دين الدهور والعصور، وهو لم يعرف

شيئًا بَعْدُ عن الإسلام، غير معرفته الحقة بالرسول، فهو لا يشك لحظة في صدقه ونزاهته، ولكن كيف يدخل دينًا جديدًا في لحظة غضب ودفاع عن الحبيب!

ونترك له المجال، بنص ما قال: "ثم أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي، وبت من الشك في أمر عظيم، لا أكتحل بنوم، ثم أتيت الكعبة وتضرعت إلى الله أن يشرح صدري للحق، ويذهب عني الريب؛ فاستجاب الله وملأ قلبي يقينًا، فغدوت إلى رسول الله، فأخبرته بما كان من أمري؛ فدعا الله أن يثبت قلبي على دينه".

وهكذا أسلم حمزة إسلام اليقين، فكان إسلامه عزة للإسلام والمسلمين، وفتحًا مبينًا لدخول أفواج كثيرة ممن كانوا مشركين، وهداهم الله إلى هذا الدين العظيم، ويأتي سيدنا عمر على رأس هؤلاء الميامين..

فرأى أبو جهل أن الحرب لا محالة قادمة، فراح يحرض قريشًا بطريقة دائمة على إنزال الأذى بالرسول وأصحابه، مهيئًا الأجواء لحرب أهلية تشفي أحقاده.

بطولات حمزة في غزوتي بدر وأحد:

لقد نذر حمزة كل عافيته وبأسه، وحياته وجهاده، لله ودينه؛ حتى أسماه رسول الله باسم عظيم (أسد الله وأسد رسوله).

إن أول سرية خرج فيها المسلمون في لقاء العدو المبين من المشركين، كان أميرها حمزة – أسد الله وأسد رسوله الأمين – فهو أول رافع لراية المسلمين.

في غزوة بدر حقق الله النصر المبين، فعادت فلول قريش من بدر إلى مكة منهزمة تجر أذيال الخزي والعار، وعاد أبو سفيان موجوع القلب متحيرًا، فجثث سادة قريش (أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وسيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، والأسود بن عبد الأسد المخزومي، والنضر بن الحارث، وكثير من رجالات قريش) ملقاة في أرض المعركة ببدر على نحو أفزع قريشًا التي عادت بعدها تشحذ بأسها لتنتقم لشرفها وقتلاها الذين سقطوا بها، وصممت على الحرب من جديد..

وجاءت غزوة أحد، فخرجت قريش كاملة بالتمام، ومعها حلفاؤها من قبائل العرب بقيادة أبي سفيان.

وفي معركتهم الجديدة، كان الهدف الأساسي هو التصويب إلى رجلين اثنين هما الرسول – عليه الصلاة والسلام – وحمزة أسد الله وأسد خير الأنام، وقد وكلوا أمر

حمزة إلى عبد حبشي يسمى وحشي، وهو عبد لجبير بن مطعم، وجائزته هي عتقه من العبودية، ثم زادته تحريضًا على قتل حمزة هندُ بنتُ عتبة، زوجة أبي سفيان؛ فقد مات في معركة بدر أبوها وأخوها وابنها، وقيل لها وقتها: إن حمزة هو الذي قتل هؤلاء!

وجاءت غزوت أحد والتقى الجيشان، وتوسط حمزة ميدان القتال، وعلى صدره ريش النعام الذي تعود أن يزين به صدره في القتال، وراح يصول ويجول ويضرب في المشركين، حتى أخذت فلول قريش في الانسحاب هاربة مذعورة، فرآهم الرماة من جيش المسلمين على هذه الصورة فسارعوا بترك مواقعهم المقررة فوق الجبل كموقع دائم، ونزلوا أرض المعركة ليجمعوا الغنائم، مخالفين أمر الرسول؛ فأعطوا الفرصة لقريش – على حين غفلة من الجيش – أن تهاجمهم من الخلف.

كانت المفاجأة عنيفة وقاسية، ورأى حمزة ما حدث فضاعف قوته ونشاطه، واستحضر حاضره وماضيه، وأخذ يضرب بيمينه ويساره أعاديه، وكان من خلفة وحشي يترقبه بحربته الماضية، ويتحين الفرصة الغادرة ليوجه إليه ضربته القاضية؛ فرُئي حمزة في عرض الناس مثل الجمل الأورق – الذي لونه بين الغبرة والسواد، وسمي كذلك لما عليه من الغبار - يهددهم بسيفه البتار يمينًا ويسارًا، فاستتر منه بشجرة وتقدمهم سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة صاح به وضربه ضربة فما أخطأت رأسه؛ عندئذ استعد وحشي بحربته فدفعها فوقعت في ثُنَتِه(*)، حتى خرجت من بين رجليه، ونهض نحوه فغُلب على أمره، ثم سقط شهيدًا مجيدًا.

ولم يكتف أعداؤه بمقتله؛ فقد أمرت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان أن يأتي وحشي بكبده، فمثلوا بجثته على نحو مهين، وأخرج وحشي اللعين كبده فأعطاها لهند فمضغتها؛ لتشفي غلها وحقدها، ولكنها استعصت على أنيابها ولم تستسغها؛ فأخرجتها من فمها.

وبعد أن انتهت المعركة، وساق الكافرون خيلهم رافعين رايات الشرك في طريقهم إلى مكة، نزل رسول الله وأصحابه الكرام إلى أرض المعركة لينظروا آثارها، وشهداءها!

وعند بطن الوادي يتفحص خاتم الأنبياء، وجوه أصحابه الشهداء، الذين باعوا أرواحهم لله فداء، وقدموها مبرورة لقاء جنة عرضها السماوات والأرض، ويقف فجأة رسول الله - صلى الله عليه وسلم – فقد هاله منظر بشع مؤذٍ للبشرية جمعاء ويحرمه الإسلام،

(*) مقدمة العورة

وهو التمثيل بالجثمان، على نحو ما رأى فيه عمه حمزة سيد الشهداء؛ فيضغط على أسنانه في امتعاض واستياء، معبرًا عن حزنه الشديد، موجهًا إلى روح عمه الشهيد هذه الكلمات: "لن أصاب بمثلك أبدًا، وما وقفت موقفًا قط أغيظ إليَّ من موقفي هذا". ثم التفت إلى أصحابه، وقال: "لولا أن تحزن صفية - أخت حمزة – ويكون سنة بعدي؛ لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن؛ لأمثلنَّ بثلاثين رجلًا منهم".

فصاح أصحاب رسول الله: "والله لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم، مثلة لم يمثلها أحد من العرب".

ولكن الله الذي أكرم حمزة بالشهادة، أكرم المسلمين بفرصة كبرى لدرس عظيم، إذ أوضح رب العالمين لرسوله الكريم أن الرحمة هي الأساس حتى في العقوبة والقصاص، قال تعالى:

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ النحل

فكان نزول هذه الآيات الكريمات على الرسول الأمين أعظم تكريم لحمزة الذي وقع أجره على الله رب العالمين.

لقد كان مصاب النبي الكريم في عمه العظيم حمزة مصابًا أليمًا، وكان العزاء فيه مهمة صعبة صعوبة بالغة، ولكن الأقدار ادخرت له أجمل عزاء في سيد الشهداء.

ففي طريق عودة المسلمين من موقعة أحد، أبصرتهم سيدة من بني دينار هي سميراء بنت قيس، أُستشهد لها في المعركة نفسها ثلاثة من الأبرار: أبوها، وزوجها، وأخوها، فحين رأتهم مقبلين سارعت تسألهم في لهفة وحنين عن أنباء السالمين من جيش المسلمين؛ فنعوا إليها ذويها أجمعين، وإذا بها تسألهم بصبر وإيمان ولهفة واهتمام عن خير الأنام، فقالت:

- وماذا فعل رسول الله؟
- قالوا: خيرًا، هو بحمد الله كما تحبين.
- قالت: أرونيه حتى أنظر إليه.

فلبثوا بجوارها حتى اقترب الرسول، فلما رأته أقبلت نحوه تقول: كل مصيبة بعدك، أمرها يهون!

إنها تضع حياة الرسول وسلامته كما البلسم، تعالج به جراح قلبها لفقد الأحبة.

أجل، لقد كان أجمل عزاء وأبقاه إلى رسول الله، من سيدة ضعيفة مسكينة، فقدت في لحظات أليمة أحبابها، لكن سلامة رسول الله هونت عليها، وألزمتها الاطمئنان والسكينة..

إنه مشهد جُعل لخاتم الأنبياء، أجمل عزاء في عمه أسد الله وسيد الشهداء.

عن عليٍّ بن أبي طالب قال: "إن أفضل الخلق يوم يجمعهم الله الرسلُ، وأفضل الناس بعد الرسل الشهداء، وإن أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب.

بطولات نسائية

لقد سجل التاريخ الإسلامي بحروف من نور، بطولات لنساء مسلمات، وصحابيات جليلات؛ تخرجن من مدرسة النبوة، وخدمن عصر الرسالة، فلم يقل دورهن المجيد عن دور الرجال، ولم يكن فقط مشاركات في هذا الدور، أو مكملات له، أو محرضات عليه، بل منهن من خاضت المعارك الحربية.

فالأحداث الإسلامية الأولى ألجأت الصحابيات للقتال ببطولة؛ دفاعًا عن الدين وعن النفس، فكانت واحدة منهن في غزوة الخندق، هي الصحابية الشجاعة صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول الكريم، وفي أحد نسيبة أم عمارة وأربع عشرة امرأة في الغزة بالذات خرجن لخدمة الجيش لا كمقاتلات، واقتدت بهن عشرون امرأة رافقن الرسول الكريم في غزوة خيبر وما تلتها من غزوات.. هذه الأعداد القليلة بكل هذا التشارك والائتلاف، أصبحت بعد عقدين من الزمن موجودة على الأرض التي فتحها المسلمون بالآلاف، ووصلت إلى ألف وسبعمائة امرأة من قبيلتي بجيلة والنخع في معركة القادسية في العراق، وملأت بطولاتهن النسائية سعة الآفاق، ومع إشراقة كل يوم مجيد تضيف مع الجيش الإسلامي أرضًا جديدة.

وقد انتدت بطولاتها طولًا وعرضًا على امتداد الخريطة الجغرافية العربية، فهي قد انطلقت من داخل المدينة المنورة ثم خارجها، فأطراف الجزيرة امتدادًا إلى معركة القادسية ١٤ هـ/ ٦٣٥ م، وانتهاء بفتح الشام، وكان هذا هو الخط الجهادي في هذا الوقت والأوان. أما عن أنواع الأسلحة التي قاتلن بها فكان الصمود في الخندق، والسيف والترس في أحد، والخنجر في حنين، والنبال والسيف في فتح الشام، وكذلك الأعمدة وحتى الحجارة والخدع العسكرية استعملتها في فتح العراق بكل مهارة وحرفية، ولا يهمها نوع السلاح حتى لو قاتلت بيدها من منطلق طاقتها الإيمانية.

ومنهن من كانت تشارك فيؤخذ برأيها لذكائها ورجاحة عقلها، ومنهن من حرضت أبناءها على نصرة دينها دون خوف أو فزع، ومنهن من ضحت بفلذات كبدها دون حزن أو جزع.

ورغن أن تلك النماذج العديدة لا يمكن قصرها على حالة، أو سردها في مقالة، إلا أن الإشارة لبعضهن الآن بإيجاز وبشكل عام قد يفتح الباب لتخصيص كتاب هام عن عشرات بل مئات من الصحابيات الجليلات فيما هو آت من عمر وأوقات.. وحتى يحين هذا الحين بإذن الله رب العالمين، أصطحبك قارئي الكريم لارتشاف قطرات من فيض

بطولات سيدات فضليات جئن ملازمات لزمن النبوة، ذلك الزمان الجميل الذي فات، وما أحوجنا لإعادة قراءته الآن مرات ومرات، على نحو ما هو آت:

سمية بنت خياط

(أم عمار)

سمية بنت خياط، صحابية من أجل الصحابيات، وهي أول شهيدة في الإسلام، تمسكت بدينها في عزم وإصرار، رغم ما تعرضت له من إيذاءات وأخطار من جانب الكفار، وهي زوجة ياسر بن عامر أول شهيد في الإسلام، وأم عمار بن ياسر – من صحابة خير الأنام عليه الصلاة والسلام – وهي سابع سبعة من المخلصين الأطهار الذين اعتنقوا الإسلام بمكة بعد الرسول، وأبي بكر الصديق، وبلال، وصهيب، وخباب، وابنها عمار.

كانت تعمل في خدمة سيدها حذيفة، ودخل ضيوف إلى الدار ذات يوم من الأيام، فكانت تخدمهم وتقدم لهم الطعام، ومن بين هؤلاء الضيوف والزوار، ياسر بن عامر وأخواه مالك وحارث اللذان ما لبثا أن عادا إلى اليمن، ولكن ياسر فضل القعود مع حذيفة وألا يعود مع أخويه، فهنا وجد الأمن والأمان، والطمأنينة والسلام، والقرب من بيت الله الحرام، فاتخذه حذيفة حليفًا له، وأعلن ذلك لأهل قريش، وأعجب ياسر بسمية فطلبها، وتزوجها على أن يكون أولادها أحرارًا؛ فأنجبت منه ثلاثة أبناء، منهم عمار بن ياسر (أحد الصحابة الأوفياء).

وظل ياسر وابنه عمار مع أبي حذيفة إلى أن توفاه الله، ففقدوا بفقده الحماية والأمان، وتقدم العمر بياسر وزوجته سمية، وفوجئ ذات يوم بكلمات عنيفة من أبي جهل عمرو بن هشام، فولده عمار قد اتبع دين محمد وأصحابه، وكفر باللات والعزى، بحسب ما ذكره عمرو بن هشام.

ويرجع ياسر حزينًا مكتئبًا إلى بيته، فتفاجئه زوجته سمية ببشرى إيمان ولدهما عمار، وأنها هي الأخرى أعلنت إسلامها وعبادتها لله الواحد القهار، خالق الأرض والسماء ومقلب الليل والنهار؛ عندئذ تذكر ياسر سر معاناته، أنه طول عمره وحياته لم يقتنع

بعبادة الأصنام ولا يحبها، ولا يركن إليها، أو يعترف بها؛ حينئذ انطلق إلى خير الأنام فأعلن إسلامه بلا تردد أو توان..

فبلغ الأمر كتائب الشر بقيادة أبي جهل عابد الأوثان؛ فأحرق أبو جهل وأعوانه الأشرار دار ياسر بن عمار، وأخذوه هو وزوجته وولده لينكلوا بهم، ويشفوا بتعذيبهم نار الحقد التي امتلأت بها صدورهم؛ آملين أن يعودوا إلى شركهم القديم، ويتخلوا عن إسلامهم، وتنوعت أساليب التعذيب، فكانوا يلقون بهم على الأرض الرمضاء، ثم يكوونهم بالنار في جنوبهم وظهورهم، ثم يضعون الحجارة الثقيلة على صدورهم ؛ ليرتدوا عن دينهم الجديد، خلاصًا من هذا التعذيب.

لكنهم يزدادون صلابة وإيمانًا ، وكان رسول الله قد مر بعمار وأمه وأبيه وهم يعذبون بالأبطح في رمضاء مكة؛ فقال قولته الحكيمة: "صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة".

لقد ذاق آل ياسر العذاب أشكالًا وألوانًا؛ عقابًا ظالمًا على اتخاذهم الإسلام دينًا، ورفضهم التخلي عنه، والعودة مرة أخرى إلى عبادة الأوثان، وصبروا على الأذى والحرمان الذي لاقوه من قومهم؛ فقد امتلأت بنور الله قلوبهم، ولن يعودوا مرة أخرى إلى غياهب الشرك والظلام..

كانوا يشدون لحية ياسر ويضربونه بالسياط وهو شيخ لا يحتمل الضرب حتى مات، فواصلت سمية بنت خياط تحديها لبني المغيرة بصبر وثبات؛ فاستشاط أبو جهل غضبًا، وبات كالمسعور من مواجهة سمية له، والسخرية منه؛ فقد حطمت كبرياءه بصبرها، وفطرت قلبه بثباتها على دينها، وهدمت كيانه برفضها النطق بكلمات العزى واللات، بل باتت تغيظه بمدحها لعدوه وحبيبها خير الأنام عليه الصلاة والسلام.

أما عن عمار ابنها؛ فقد عذبه المشركون عذابًا شديدًا فاضطر لإخفاء إيمانه عنهم، وإظهار الكفر بينهم، وقد أنزلت آية من القرآن في شأنه، يقول جل وعلا ﴿**مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦**﴾ النحل

وظلت أم عمار على إعلانها لإسلامها دون خوف أو وجل، صابرة على أذى أبي جهل صبر الأبطال، فلم تهن عزيمتها، ولم تتزعزع عقيدتها، أو يضعف إيمانها، رغم تفنن الخبيث في إيذائها بأقبح الكلمات وأغلظها.

إلا أنها تحدت جبروته بصلابة وثبات، وأعيت حيله الماكرات؛ فهداه شيطانه إلى طعنها

بحربة غادرة، فماتت شهيدة طاهرة نقية، وصعدت روحها إلى بارئها راضية مرضية، وهي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فكانت بذلك أول شهيدة في الإسلام، وزوجة أول شهيد فيه أيضًا..

وبعد مقتل أبي جهل في معركة بدر الكبرى، قال النبي لعمار بن ياسر: "قتل الله قاتل أمك".

الخنساء بنت عمرو

(شاعرة الإسلام وأم الشهداء)

هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد بن رباح السُّلمية المعروفة باسم الخنساء بنت عمرو، كانت شاعرة رثاء في عصر الجاهلية، بل أشعر النساء، شهد لها بشار بن برد، وقال عنها: إنها غلبت فحول الشعراء. وقال عنها جرير: إنها من أشعر الناس. وعدها علماء اللغة والنحو مع ليلى الأخيلية أشعر نساء العرب، وأكثرهن فصاحة وبلاغة..

لقبت الخنساء بهذا الاسم بسبب ارتفاع أرنبة أنفها، كما لقبت أيضًا بالبقرة الوحشية نسبة إلى عيون البقر الوحشي التي كانت من أجمل العيون في نظر العرب، أو الخنساء الظبية في إشارة إلى جمال الظباء.

وهي صاحبية جليلة وشاعرة مشهورة، قدمت على النبي – صلى الله عليه وسلم – مع قومها بني سليم فأسلمت معهم، وكان الرسول يستنشدها الشعر ويقول لها: هيه يا خناس، أي: زيدينا.

في عام ٦١٢م قتل هاشم ودريد ابنا حرملة أخاها معاوية؛ فقامت الخنساء بتحريض أخيها الأصغر صخر بالثأر لأخيه، فاستطاع الانتقام لمقتل أخيه دريد، ولكنه توفي بعد أن أصيب، وقيل إن الخنساء أصيب بالعمى من شدة بكائها وحزنها على موت أخيها صخر الحبيب، رغم أنه غير شقيق لها، إلا أنه كان أحب إخوانها إلى قلبها الشفيق الرقيق؛ فقد كان جوادًا حليمًا محبوبًا بين أبناء العشيرة بوجه عام، وكان يقف دائمًا إلى

جانبها، يمد لها يد العون والرعاية والاهتمام؛ ولمَّا قتل ظلت ترثيه، وذاع صيت مرثيتها وبكائها فيه بين العرب دانيهم وقاصيهم، وأصبحت تلك المرثية الأكثر تداولًا وشهرة في العربية من باقي أشعارهم المنسية، فانتشرت تلك المرثية في كل مكان على كل لسان، وسارت بها الركبان، وتقول في مطلعها:

أَعَينَيَّ جودا وَلا تَجمُدا

أَلا تَبكِيانِ لِصَخرِ النَدى

أَلا تَبكِيانِ الجَريءَ الجَميلَ

أَلا تَبكِيانِ الفَتى السَيِّدا

طَويلَ النِجادِ رَفيعَ العِمادِ

سادَ عَشيرَتَهُ أَمرَدا

إِذا القَومُ مَدّوا بِأَيديهِمِ

إِلى المَجدِ مَدَّ إِلَيهِ يَدا

فَنالَ الَّذي فَوقَ أَيديهِمِ

مِنَ المَجدِ ثُمَّ مَضى مُصعِدا

يُكَلِّفُهُ القَومُ ما عالَهُم

وَإِن كانَ أَصغَرَهُم مَولِدا

تَرى المَجدَ يَهوي إِلى بَيتِهِ

يَرى أَفضَلَ الكَسبِ أَن يُحمَدا

وَإِن ذُكِرَ المَجدُ أَلفَيتَهُ

تَأَزَّرَ بِالمَجدِ ثُمَّ اِرتَدى

وسبق للخنساء أن قالت في رثاء معاوية مرثية أخرى، جاء فيها:

أَلا لا أَرى في الناسِ مِثلَ مُعاوِيَة

إِذا طَرَقَت إِحدى اللَيالي بِداهِيَة

بِداهِيَةٍ يَصغى الكِلابُ حَسيسَها

وَتَخرُجُ مِن سِرِّ النَجِيِّ عَلانِيَة

أَلا لا أَرى كَالفارِسِ الوَردِ فارِسًا

إِذا ما عَلَتهُ جُرأَةٌ وَعَلانِيَة

حتى قالت:

فَأَقسَمتُ لا يَنفَكُّ دَمعي وَعَولَتي .. عَلَيكَ بِحُزنٍ ما دَعا اللهَ داعِيَة

فالخنساء زينة النساء، مع شاعريتها الرقيقة الفياضة، ومرثياتها الحادة، كانت ذات شخصية قوية جادة، تتمتع بأخلاق عالية، ورأي حصيف، وصبر جميل، وشجاعة فائقة، وروح وثابة.. وموقفها يوم القادسية دليل برهان، على مكونات تلك الشخصية عميقة الفكر والإيمان.

موقف الخنساء يوم القادسية:

خرجت الخنساء في هذه المعركة مع المسلمين، ومعها فلذات كبدها الأربعة أجمعين: عمرة، وعمرو، ومعاوية، ويزيد، وقبل بدء القتال بقليل أوصتهم وصية حكيم، فقالت في حزم ويقين: "يا بني، لقد أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم بنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم... إلى أن قالت: "فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجعلت نارًا على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها؛ تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة".

خرج بنوها لنصحها مستوعبين، وتقدموا يقاتلون وهو يرتجزون:

فأنشد الأول:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة
قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
بمقالة ذات بيان واضحة
وإنما تلقون عند الصابحة
من آل ساسان كلابًا نابحة

وأنشد الثاني:

إن العجوز ذات حزم وجلد

قد أمرتنا بالسداد والرشد
نصيحة منها وبرًّا بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد

وأنشد الثالث:

والله لا نعصي العجوز حرفًا
نصحًا وبرًّا صادقًا ولطفًا
فبادروا الحرب الضروس زحفًا
حتى تلفُّوا آل كسرى لفًّا

وأنشد الرابع:

لست لخنساء ولا للأحزم
ولا لعمرو ذي السناء الأقدم
إن لم أُرد في الجيش جيش الأعجمي
ماضٍ على الهول خضم حضرمي

وعندما دارت المعركة، استشهد أولادها الأربعة – واحدًا تلو الآخر – وحينما بلغ الخنساء الرائعة، خبر مقتل أبنائها الأربعة؛ قالت وهي غير جازعة: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم في سبيله، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته".

وقد فتح الله تعالى على المسلمين بعد معركة القادسية الفتح المبين، إلا أن الخنساء عادت إلى المدينة بغير أبنائها، وعلم عمر بن الخطاب برجوعها، فعزاها في مصابها، وكان يعطيها أرزاق أولادها الأربعة حتى قبض، فرجعت إلى البادية، وأقامت بقية عمرها العظيم بين قومها بني سليم، بعد أن أنهكتها الأيام، وأجهدتها الأعوام، إلى أن فارقت الحياة مع مطلع خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه وعنها وعنهم أجمعين..

إنها قصة فريدة لشخصية نادرة الوجود، لن يجود بها زماننا المعهود، فهي رمز من رموز البطولة الحقيقية، يستحيل على غيرها التشبه بها، فلكل صبر حدود، فأي امرأة قوية حروض تلك التي تدفع بأولادها الأربعة إلى معركة حربية، وتحفزهم على خوضها بحماس وحمية، وتشحذ نفوسهم بقوة إيمانية، وتستهين بالتضحية في سبيل الدفاع عن العقيدة الإسلامية.. ثم عند استشهادهم تحمد الله وتشرف بقتلهم في سبيله، وترجو الله أن يجمعها بهم: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني

بهم في مستقر رحمته".

أي إيمان هذا يا خنساء البطولة والثبات! وأي إخلاص لدين الله العظيم، وأي نموذج نادر وفريد لأمهات بعن الدنيا بالدين مختارات طائعات! إنه إيمان من نوع خاص تميزت بع هذه الأرواح البارة الطاهرة، وهذه الشخصيات العظيمة النادرة.

رحمة الله عليكِ يا من كنت أهلًا للوفاء بالعهود.. رحمة الله عليكِ يا خنساء الثبات والصبر والصمود..

المجاهدة الرمز

(أم عمارة)

هي نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف، أنصارية من بني مازن، أسلمت عند ظهور الإسلام، وبايعت النبي عليه الصلاة والسلام، وشهدت معه غزوات أحد والحديبية وخيبر وحنين، وعمرة القضاء، ويوم اليمامة، وبيعة الرضوان، وروت عنه عدة أحاديث، وهي من المبشرين بالجنة، زوجها هو زيد بن عاصم، وهي أم حبيب بن زيد الذي قتله مسيلمة الكذاب، كما سبق أن أشرنا، وأم عبد الله بن زيد الذي ثأر لأخيه.

ثأر أم لابنها:

صاحبة الثأر هم أم عمارة، وتطلب الثأر لبكرها (حبيب) من مسلمة مدعي النبوة الكذوب، فخرجت مع ابنها عبد الله تحثه على ما انتواه، حتى انتهت إلى حديقة الموت؛ فوجدا مسيلمة وثلة من البغاة.. تقول أم عمارة واصفة ما حدث بنص العبارة: "فدخلت وأنا أريد عدو الله، فعرض إليَّ رجل منهم فضربني فقطع يدي، فوالله ما عرجت عليها، ولم أزل حتى وقعت على الخبيث مقتولًا، وابني يمسح سيفه بثيابه؛ فقلت له: أقتلته يا بني؟ قال: نعم يا أماه، فسجدت لله شكرًا"

حقًّا، إن أم عمارة رمز الجهاد، ونموذج الفداء والبذل والعطاء؛ فقد تخرجت في مدرسة

النبوة الغراء بعطائها الوافي، وتشربت بفطنة وذكاء من معينها الصافي.

فالشخصية التي نتحدث عنها فيها تفرد وانفراد، بصفات تجعلها توصف بعبقرية الفروسية والجهاد؛ فقد حققت بطولات عجز عنها الرجال، وشاركتها في هذا المجال – في ميدان البطولة النسائية – أسماء بنت عمرو بن عدي (أم منيع) فهما أول امرأتين أسهمتا بطريقة فعالة وقوية، في إرساء قواعد الدولة الإسلامية.

والشخصية التي نتحدث عنها الآن، هي لفارسة مغوارة عسلة اليد، تتمتع بجسارة القلب، مزيارة الجأش، محاربة مقدامة، يخشاها العدو من بُهمتها، أي: شجاعتها.

ولنتعرف على بطولاتها التي قامت بها:

قدمت أم عمارة الأنصارية من يثرب، لمبايعة خير البرية ضمن ثلاثة وسبعين رجلًا، والكل يتسلل متخفيًا خشية الملاحقة الشركية، حتى اجتمعوا في الشِّعْبِ عند العقبة ليلًا يتشاورون في أمرهم، في أجواء حفتها المخاطر والمخاوف من مشركي مكة وبطشهم، حتى التقوا الرسول وأعلنوا إسلامهم.. وتمضي الأيام واحدًا تلو الآخر، والبطلة المجاهدة تشهد جميع الغزوات، لم تستثن واحدة:

قتال بطلة أحد:

في معركة أحد، تخرج هذه العائلة المؤمنة، وتقوم أم عمارة بدور الفارسة والممرضة معًا!

لقد خرجت أول النهار على كل حال، وذهنها خال من فكرة المشاركة الفعلية في القتال، تحمل إناء من ماء، تسقي به عطشى المجاهدين في أجواء رمضان؛ فلما اهتزت كفة المسلمين، وأوشكت على التداعي، همت بسرعة فائقة، وبكل إيمان واعٍ، تاركة خدمتها المحدودة؛ لتصبح في لحظات فاصلة مقاتلة فاعلة. وتصف أم عمارة ما حدث في تلك الموقعة، في كلمات دقيقة بارعة، ، فتقول: "فلما انهزم المسلمون؛ انحزت إلى رسول الله، فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف، وأرمي عنه بالقوس، حتى خلصت إليَّ الجراح".

فاستفزها صوت ابن القميئة اللعين، وهو يقبل في اتجاه الرسول الكريم قائلًا: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا".

وتكمل وصف ما حدث فتقول: "فاعترضته أنا ومصعب بن عمير، فضربني ضربة غارت في كتفي، فبادلته ضربات عديدة".

فكانت جراحها الغائرة أول وسام تحلت به في أحد، مع مرتبة شرف الإسلام، التي منحها لها خير الأنام عليه الصلاة والسلام، وهو يصف ما كانت تفعله، فيقول: "ما التفتُّ يمينًا ولا شمالًا إلا وأنا أراها تقاتل دوني".

كبت مشاعر الأمومة والتحريض على الجهاد:

قال ابنها عبد الله: كانت أمي تربط جراحي ورسول الله واقف ينظر، فما عصبته حتى قالت لي: انهض يا بني لتضرب القوم!

مما جعل النبي يهتف بإعجاب: "ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟"

فقامت تسأل رسول الله بضراعة وكلها أمل وتفاؤل: "ادعُ الله أن نرافقك في الجنة" فتضرع الرسول الكريم إلى ربه: "اللهم لجعلهم رفقائي في الجنة".

تلك هي بطلة أحد، وفارسة أحد المغوارة، التي استحقت بجدارة من خلال مواقفها وبطولاتها التي اتسمت بالشجاعة والجسارة، خلال رحلتها التي شهدت خلالها جميع الغزوات، أن تنال أعلى الدرجات؛ فتصبح واحدة من المبشرين بجنة عرضها السماوات والأرض، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

(البطلة المهاجرة)

وهي قرشية أموية شابة في عمر الزهور، آثرت الإسلام وصحبة النبي عليه الصلاة والسلام على البقاء على الشرك مع الأب والأم والإخوة وعبادة الأوثان، فأبوها في

حلبة الشرك كان أحد الفرسان.

لم تكن الهجرة نزهة بحرية على ظهر سفينة أو يخت من اليخوت، بل رحلة شاقة محفوفة بمخاطر الغموض والخوف والتعرض للموت، إلا أن النفوس التي تسلحت باليقين والإيمان، واستسلمت لقضاء الرحيم الرحمن، جعلت من الهجرة في ظل هذه الظروف الشاقة سكينة وبردًا وسلامًا.

أسلمت أم كلثوم بمكة، وبايعت خير البرية قبل الهجرة النبوية، وأجمعت كتب السيرة وما تضمنته من أحداث وأنباء، على أنها أول من هاجر من النساء. بعد هجرة خاتم الأنبياء وخير البرية، خرجت أم كلثوم من قريش ومن أبويها متخفية.

هذه البطلة برسوخ عقيدتها، وعمق ذكائها، واستواء فطرتها، خرجت إلى البادية لتقيم فيها، وأدرك أهلها وذووها خطتها التي كانت تنتويها، ونفذتها بعد معاهدة الحديبية، فغادرت مكة قاصدة المدينة وكأنها تريد البادية.

إن بطولتها هي رحلة مشتها على الأقدام من مكة إلى المدينة حيث الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام، مواجهة بمفردها المخاطر والمشاق، سائرة وحدها دون رفاق، يؤنسها إيمانها، ويثبتها يقينها، ويحميها ربها.

تدخل أم كلثوم بعد مشاق الرحلة وعنائها على أم سلمة زوجة النبي فتقبلها وتعانقها، ولكن تأخذها ريبة وشك كبير بتوقع وصول أخويها بعد وقت قصير، في محاولة لردها إلى مكة بالقوة والاقتدار، وإرجاعها إلى الوثنية عقيدة الكفار.

أخذت تسترسل مع هواجسها، ويضيق صدرها، ويملأ الخوف قلبها، ويدخل من هاجرت إليه – صلى الله عليه وسلم – ليستقبلها أفضل استقبال، رغم عداوة أبيها له على كل حال، ويصل على إثرها أخواها عمارة والوليد فيقولان للرسول:

- يا محمد، شرطنا أوفِ به.

في هذه اللحظات ماجت الأرض، وبدأت تميد بأم كلثوم، لكن محال أن يخذلها الله في إسلامها وهو ما تروم.

والرسول الحبيب أكرم من أن يجيب هؤلاء لما طلبوه، فكيف يعيد من هاجرت إليه لنصرة دينه! إنه لن يخذل من ناصروه. هكذا كانت تحدث نفسها وتستغيث بربها، مستعينة بقوة إيمانها، فتقول: "يا رسول الله، أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف ما قد

علمت، أتردني إلى الكفار يفتنونني في ديني، ولا صبر لي؟"

ويطلع سبحانه وتعالى على هذه المشاهد الحزينة؛ فتنزل الآية الكريمة رفقًا بها وبمثيلاتها، قال تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ الممتحنة ١٠

إن التكريم الرباني قد غمر قلب أم كلثوم، فكساها بالغبطة والفرح، وكيف لا يكون والرسول أشد فرحًا لسعادة هذه الفتاة التي أنجاها الله بفضل إخلاصها لعقيدتها، وتمسكها بإسلامها، وقد امتحنها الله فابتليت هذا الابتلاء، ثم كرمها رب الأرض والسماء بنزول الآية الكريمة التي حثت خاتم الأنبياء على امتحان النساء، فكانت بصيغة البيعة:

"والله ما أخرجكن إلا حب الله ورسوله؟ ما خرجتن لزوج ولا لمال؟"

فإن قلن ذلك لم يردهن.

إن الإسلام والهجرة علما المرأة كيف تقهر ضعفها، وتطالب بحقها، وخلصها من عادات الجاهلية، ومنحها الحرية في العقيدة والفكر، وحق التعبير عن الرأي، دون وصاية أو حجر من أخ، أو أب، أو خال، أو عم.

لقد أزالت الهجرة إلى غير رجعة عهودًا بائدة، وعادات قديمة فاسدة، وأشرقت بعهد جديد تبني فيه المرأة شخصيتها القوية، على هدي التعاليم السماوية، التي من أجلها هان كلُّ غالٍ ونفيس على تلك الصحابية؛ فنالت ما تستحقه من تكريم ونصر، حتى أضحت نموذجًا يستحق الاقتداء من نساء هذا العصر.

الخاتمة

كان الرسول الكريم يمشي كأنه يتقلع من الأرض بتؤدة وروية، فترتسم في خيالي صورة رائعة جلية، شاخصة ممتلئة بالحيوية، متوفرة النشاط والجد، عظيمة الصفات في هذا كله عظمة لا تحد.

أنظر إلى الصورة التي بدت وتجسدت؛ فأرى النور الرائق الصافي ينبع من أعماق روحه الطاهرة، وينفذ إلى أعماق النفس الناظرة.. أراه يتحرك في الأرض يضرب في مناكبها، ويشق طريقه في قوة وتمكن وثبات؛ ليضع اللبنات التي تقيم البناء لبنة لبنة، غير عابئ بما يواجهه من صعاب وتحديات..

أراه في مواقفه النفسية الدقيقة العميقة، فأكاد ألمس النفس الجياشة الدافقة بالحق والحقيقة، وأراه في حالات تعبده والنور يتألق من روحه النقية، ومن طلعته البهية؛ فأحس كأن هذا النور الوضاء، يتحرك تحركًا ممتدًّا حتى يشمل أركان الفضاء.

وهأنذا قد حاولت إخراج صورة الرسول – صلى الله عليه وسلم - من عزلتها الموحشة في قلوب المسلمين الآن؛ لنرى أقواله وأفعاله، حركاته وسكناته، أخلاقه وصفاته بتدبر وإمعان؛ لندرك كيف كانت تمثل كل كلمة من كلماته التي أُوحيت إليه من الله، منهج تربية، ومنهج سلوك، ومنهج تذكير، ومنهج حياة!

إن السيرة النبوية، وسيرة الصحابة الكرام، تعكس مناخًا إيمانيًّا يتجسد في تلك الأقوال والأفعال، والمواقف والبطولات، التي تحتاج الآن إلى إعادة قراءتها بإمعان تام؛ علَّها تفيدنا وأولادنا وأحفادنا فيما هو قادم من أيام وأعوام.

إن ما بين يديك قارئي العزيز، مختارات متفرقة من أحاديث وأقوال، صفات وأفعال، مواقف وبطولات، تتيح للقارئ أن يصول ويجول الآن، مرتشفًا قطرات من فيض الرسول عليه الصلاة والسلام.

كل قطرة منها تروي شجرة اليقين؛ فتثمر الإيمان.. كتبتها دون أن أدعي الكمال الطليق، فحسبي أنها تفتح المجال والطريق.

اللهم وفقني وأوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ.. إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

١- القرآن الكريم

٢- السنة النبوية

٣- استمتع بحياتك، فنون التعامل مع الناس في ظل السيرة النبوية، د/ محمد عبد الرحمن العريفي

٤- أُسْدُ الغابة، ابن الأثير

٥- أسواق الذهب، أحمد شوقي، أمير الشعراء

٦- أشعار النساء للمرزباني، د/ سامي مكي الحاني، وهلال ناجي

٧- الإصابة في أعلام الصحابة، ابن حجر العسقلاني

٨- أعلام النساء، عمر رضا كحالة

٩- أوربا على خطى الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، الحجامة الحديثة، د/ هاني علي الغزاوي

١٠- البداية والنهاية، ابن كثير

١١- التلبينة غذاء ودواء، م الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة، ع ١٧، أ.د/ رامي عبد الحسيب

١٢- الحق المبين في استشهاد الإمام الحسين بن علي، مروان عزام

١٣- حياة محمد، د/ محمد حسين هيكل

١٤- رجال حول الرسول، خالد محمد خالد

١٥- الرسول، سعيد حوى، دار السلام

١٦- زاد المعاد، ابن القيم، ج ١، مؤسسة الرسالة

١٧- سير أعلام النبلاء، الذهبي

١٨- سيرة ابن هشام الأنصاري

١٩- سيرة الرسول، محمود المصري

٢٠- السيرة النبوية، ابن هشام

٢١- الشبكة العنكبوتية

٢٢- شرح السنة، البغوي

٢٣- الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، الترمذي

٢٤- صور من حياة الصحابة، د/ محمد رأفت الباشا

٢٥- صور من سير الصحابيات، الشيخ عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني

٢٦- صورة الحبيب، د/ عطية مصطفى، ومحمد خالد ثابت

٢٧- الصيام معجزة علمية، د/ عبد الجواد الصاوي

٢٨- الطب النبوي، ج ٣، د/ سليم عثمان

٢٩- الطبقات الكبرى، ابن سعد

٣٠- عبقرية محمد، عباس محمود العقاد

٣١- عظمة الرسول، محمد عطية الإبراشي

٣٢- علو الهمة، محمد بن إسماعيل

٣٣- قبسات من رحمة الرسول، د/ راغب السرجاني

٣٤- قصص وعبر وعظات من سيرة الصحابيات

٣٥- محمد الرسالة والرسول، د/ نظمي لوقا

٣٦- محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن والسنة، أ.د/ محمد شفيق الطيب

٣٧- مقالات متنوعة، الشبكة العنكبوتية

٣٨- الموسوعة المحمدية، ج ١، ٢، فتحي الإبياري

٣٩- النبي الجميل، د/ هاني العزاوي ج ١

٤٠- نبي الرحمة، محمد سعد ياقوت

٤١- النساء الداعيات، توفيق يوسف الواعي

٤٢- نساء في صحبة النبي، سهيلة الحسيني

الفهرس

شكر وتقدير

الإهداء

التقديم

مع قطرات من فيض الرسول

الباب الأول: الشخصية المحمدية

رسالة إلى الحبيب

السيرة العطرة منهج للإصلاح والدعوة

شخصيته

العالم قبل البعثة

الصفات العظيمة لمكانة جزيرة العرب

القبيلة

بيت النبوة

هاشم بن عبد مناف (عبد المطلب)

عبد الله (والده)

أبو طالب (عمه)

مولد النور

نسب النبي

الرسول

تعريف بنفسه

بشائر الرسالة

الرسول والرسالة

موقفه من عمه أبي طالب

موقفه من ذؤابة قريش (قومه)

التوازن النفسي والسلوكي

التوازن النفسي في شخصية الرسول

التوازن السلوكي في شخصية الرسول

التوازن النبوي بين القول والفعل

الصدق النبوي في الجد والدعابة

التوازن الأخلاقي في شخصية الرسول

التوازن النبوي بين الحزم واللين

محمد المثل الكامل

قصة عمرو بن العاص وإسلامه

قصة إسلام عدي بن حاتم الطائي

إنسانيات الرسول وعطفه

مثال: قصة زاهر بن حرام

تعامل الرسول مع النساء

تكريم الرسول للنساء

فن التعامل مع المخالفين في دين الإسلام

قصة عتبة بن ربيعة مع الرسول

قصة حصين بن المنذر الخزاعي

العفو من صفات الرسول

عفوه عن مشركي مكة عام الفتح

عفوه عن أهل الكتاب

عفوه عن قبيلة بني النضير اليهودية

عفوه عن الضعفاء أثناء الحرب

عفوه عن الأعراب الأغلاظ

المنهج النبوي مع المخطئين

موقف الرسول مع حاطب بن أبي بلتعة

موقف الرسول مع صفوان بن أمية

موقف الرسول مع ماعز بن مالك الأسلمي

الباب الثاني مع الشمائل المحمدية

النبي الجميل

وصف الحبيب

منزلته

حق الرسول علينا

زيارة لبيت النبوة

بيت النبي في المدينة المنورة

دعاء قبل النوم

النوم على الشق الأيمن

البرنامج الغذائي السليم للرسول عليه السلام

أغذية خاصة من الهدي النبوي

الخل – استخداماته

البلح والتمر: فيتامينات ومعادن في التمر
الشعير
تركيب الشعير
عسل النحل
مع النبي (زينته وثيابه)
شعر النبي ولحيته
اكتحاله بالإثمد
فمه الشريف وأسنانه (السواك)
أحب الثياب إليه، عمامته، وإزاره الشريف
صفة كلام رسول الله، ومنطقه في الحياة
وصف مشيه وخطاه
أدب المصافحة والتقبيل
من هدي الحبيب في الرياضة
رياضة النفوس
رياضة الروح
الصلاة
صفة صلاة الرسول
الفوائد الطبية للصلاة
الصلاة شفاء للبدن
الصلاة وقاية
الصلاة وتقوية العظام

فوائد طبية أخرى

الصلاة علاج نفسي (شفاء للنفس)

الصلاة والدعاء غذا للروح

ثانيًا: الصوم

الصيام: أحكام الصيام

علاقة الصوم بالأخلاق

فوائد الصوم الصحية

الطب النبوي (الحجامة)

خاتمة الباب الثاني

الباب الثالث: بطولات شهدتها الغزوات

أبطال من الميدان

مصعب بن عمير أول سفراء الإسلام

حبيب بن زيد أسطورة فداء وحب

بلال بن رباح (مؤذن الرسول)

سلمان الفارسي صاحب فكرة الخندق

معاذ بن جبل أعلم أمتي بالحلال والحرام

حمزة بن عبد المطلب (أسد الله ورسوله)

بطولات نسائية

سمية بنت خياط (أم عمار)

الخنساء (شاعرة الإسلام وأم الشهداء)

نسيبة بنت كعب (أم عمارة)

أم كلثوم بنت عقبة البطلة المهاجرة

الخاتمة

المراجع

السيرة الذاتية للكاتبة

السيرة الذاتية للباحثة والروائية والشاعرة

دكتورة: مرفت محرم

الاسم: مرفت محمد فتحي محرم

الميلاد والنشأة: الإسكندرية

العنوان، الإقامة الحالية:

أرض الجولف، نبيل الوقاد ١٢ على ابن صفوان

المؤهلات العلمية:

- دكتوراه الفلسفة في العلوم الزراعية جامعة قناة السويس ٢٠٠٥

العمل والأنشطة:

- عضو هيئة تدريس منتدب بكلية الاقتصاد المنزلي جامعة المنوفية
- عضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب فرع المنوفية
- عضو في ساقية الصاوي
- عضو ومحاضر مركزي بالهيئة العامة لقصور الثقافة

الكتب والمؤلفات:

- بهجة الروح، ديوان شعر
- مصر التي، ديوان شعر
- في ظلال الحياة، مقالات بفن المقامة
- النفق، مجموعة قصصية
- مفترق طرق، مجموعة قصصية
- الزلزال مشاهدُ وأحداث

- سقط سهوًا، مجموعة قصصية
- مراحل الغضب، مجموعة قصصية
- مشاعر غير معلنة، مجموعة قصصية
- خبز البحر، رواية
- الزَّقال: ترنيمة عشق، رواية
- قطرات من فيض الرسول، كتاب إسلامي ومرجع علمي.

(ظهر الغلاف)

تضم هذه الصفحات غيضًا من فيض القدوة الحسنة والخلق العظيم، لهذا النبي الأمي اليتيم، الذي صنعه الله على عينه، ووصفه بأنه على خلق لا يرقى إليه بشر، وبعثه رحمة للعالمين، وخاتمًا للمرسلين، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ومجاهدًا في الله حق جهاده.

الدكتورة/ مرفت محرم

قطرات من فيض الرسول

وتضم هذه الصفحات
غيضا من فيض القدوة الحسنة
والخلق العظيم
لهذا النبي الأمي اليتيم
الذي صنعه الله على عينه
ووصفه بأنه على
لا يرقى إليه
وبعثه الله
وخاتما للمرسلين،
وداعيا إلى الله بإذنه
وسراجا منيرا،
ومجاهدا في الله حق جهاده

الدكتورة/ مرفت محرم

غلاف عادل امين